شِعْرُ الفِرار في العَهْدِ النَّبوي
(دراسةٌ في السِّياق والخطابِ الإقناعيّ)

د. محمد شمس كامل عُقاب

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب

جامعة الإسكندرية

شعر الفرار في العهد النبوي (دراسة في السياق والخطاب الإقناعي)

محمد شمس كامل عُقاب
قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية – مصر
البريد الإلكتروني: mohamed.shams@alexu.edu.eg

ملخص البحث:

يرصد البحث ظاهرةً مهمة من ظواهر الشِّعر في العهد النبوي، مثبتًا سَعَتَها وما أحدثته من جدالٍ حجاجيّ يصبو إلى الإقناع بالطرق المختلفة. وهي تمثل ديوانًا كاملًا في موضوع فريدٍ مختلف.

لقد وقف البحث على إحدى عشرة واقعةً من وقائع الفرار في العهد النبوي، أي في نحو عشر سنين فحسب، ولّدت هذه الوقعات شعرًا كثيرًا من شعر الفرار.

إن مما يدل على قيمة ظاهرة الفرار كثرة الشعراء المشاركين فيها بين مهاجم متّهِم، ومدافعٍ عن نفسه، وكثرة الخائضين في أمرها من غير الشعراء، والقيمة أن بعض هؤلاء الشعراء يحتاج إلى تنقيب وبحث عنه. وقد سلك هؤلاء الشعراء سُبُلًا مختلفةً في إيراد التهم والدفاعات، وقد استخدمت هذه الدفاعات الحجج العقلية والعاطفية المختلفة، واتخذوا سبلًا مختلفة للتأثير في المخاطبين نفسيًّا ومنطقيًّا، أو مغالطيًّا في بعض الأحيان.

الكلمات المفتاحية: الشعر في صدر الإسلام . شعر الفرار . نظرية الحجاج.

Desertion poetry during the Prophet's era (Study of context and persuasive discourse)

Mohammad Shams kamel Uqab
Department of Arabic Language and Literature
Email: mohamed.shams@alexu.edu.eg

Abstract: This article deals with an important phenomenon of poetry during the Prophet's era, proving its capacity and the argumentative debate that aim to persuade in different methods. It represents an entire collection of poems in a different unique topic.

The article focuses on eleven incidents of desertion during the Prophet's era, that is, in only about ten years, and these episodes generated a lot of desertion poetry.

What indicates the value of the phenomenon of desertion is the large number of poets who participate in it, such as an accused attacker and this who defends himself, as well as the large number of those who are involved in its matter but they are not poets. These poets are that important to be studied deeply.

These poets have taken different paths in presenting the charges and defenses. These defenses have used different mental and emotional arguments, and they have taken different ways to influence, psychologically, logically or sometimes sophisticatedly, the addressees.

Key words: Poetry in Early Islam - Desertion poetry – Arguments theory.

لقد لفت نظري وأنا أقرأ كتاب (السيرة النبوية) لابن هشام[١]، وفيه ذكرٌ لمغازي النبي ﷺ[٢]؛ ظاهرةٌ وجدتْ مكانًا رحبًا في وجدان ذلك العهد، تأريخًا وشعرًا، ألا وهي ظاهرة الفِرار من القتال، وما قيل فيها من أشعارٍ بين الطرفين المقتتلين، من الفارّين أنفسِهم، أو من شعراء في الذين فَرُّوا.

إنَّ شعر الفِرار وما قيل في الفُرَّار ليس حادثًا في العهد النبويّ، فهو قديم منذ الجاهلية، ولكني أعدُّه من الأغراض المهمَّة في شعر صدر الإسلام لعهد النبي ﷺ: طرافةً وسَعةَ إنشادٍ وذِكْر. وهو من الظواهر التي لم تُفرد بحديث في فيما رأيته من كتب الدارسين، ففي دراستها وضع لبنةٍ جديدة في تاريخ الأدب في ذلك العصر، وتسليطٌ للضوء عليها.

ولعل أبرز ما يسترعي الاهتمام في هذا الشعر ما يرد فيه من الحُجج التي يُوردُها أصحابُها للدفاع بها عن أنفسهم من وصمة العار في الفرار، وتنوُّعُ تلك الحجج واختلافُها، سواءٌ أوافقت حقيقة الأمر أم لم توافق.

ولعلَّ عصرًا لم يظفر بهذه الظاهرة في شعره كما ظفر بها العهد النبويّ؛ من حيث القول والأداء الشِّعريّ، ومن حيث إنه عصرٌ جرَّم الفرار وحرَّمه، وهو كان مقَبَّحًا عند العرب من قبل، موصومٌ صاحبه بالعار والخزي؛ فاستحقَّتْ هذه الظاهرة أن ندرسها حينئذٍ.

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري (تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).

(٢) كتاب ابن هشام مختصرٌ من كتاب ابن إسحاق، وفيه زيادات وشروح، وقد عُرف كتاب ابن إسحاق بين الناس بأسماء مختلفة، منها (المغازي)، ولكن ذهب بعضُ الباحثين إلى أن الظاهر من مراد المتقدِّمين (بمغازي ابن إسحاق) هو كتبُه الثلاثة المذكورة: (المبتدأ، والمغازي، والخلفاء)، وأن هذه الكتبَ الثلاثة فصول أو أبواب في كتاب المغازي (انظر: رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات، لمطاع الطرابيشي ص١٩٣-١٩٤، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

وقد رأيت أن هذه الظاهرة لهذا العهد حَرِيَّةٌ بالدراسة في سياقين: سياق التأريخ الأدبي لهذه الظاهرة، وما بزغ من أشعارها في ذلك الوقت، وما قد خلَّفته من آثارٍ في المجال الأدبي؛ وسياقِ تحليل ما جاء في غضون هذا الشعر من خطابٍ إقناعيّ –وهو من أجلى خصائص ذلك الشعر– يُريد بذلك أصحابُه الاعتذارَ عن أنفسهم، أو الاحتجاج لصحَّة مذهبهم في الفرار، متّخذين في ذلك الوسائل التأثيريَّة المختلفة: الأسلوبية والعقلية والنفسية؛ تحليلًا يظهرنا على القُدرة الفكريَّة والفنِّيَّة لدى شعراء ذلك العهد.

وعلى هذا النحو من الدرس، لم أجد دراسةً خصَّت هذا الموضوع من قبل، فيما وقفتُ عليه من البحث(١)، والله أعلم.

وخُطَّة البحث أن أبدأه بمفهوم (الفرار) في اللغة، ثم بتمهيد عن الفرار في الشعر الجاهلي، ثم حديثٍ عن الفرار في الإسلام وخطره وحُكمه.

ثم رأيتُ بعد جمع المادة أن أعرضها على التسلسل الزمني للفَرَّات الحادثة في العهد النبوي، فَرَّةً فرَّة؛ وهذا هو السياق التاريخي؛ فإذا ما عرض الخطاب الإقناعيُّ في أي موضع من مواضع الشعر؛ وقفت عليه بالدرس والتحليل لما فيه من الحُجج. ولم أُرد أن أَفْصِلَ تحليل الخطاب الإقناعي عن السياق التاريخي لكيلا أكرِّر الأشعار في البحث؛ فيطول من غير كبير طائل، ولأنه ثمة ارتباطٌ بين الحجج والسياق الذي قيلتْ فيه كما سوف يظهر في البحث.

فيكون البحث مستدعيًا في الدراسة منهجين: المنهج التاريخي، وذلك في دراسة السياق، وأدوات مبحث الحِجاج الذي يمتاز بكثرة الحقول المعرفية

(١) مما كتب في شعر الفرار ولكن في العصر الجاهلي: الفرار في الشعر الجاهلي: المواقف واختلاف وجهات النظر، لمشتاق طالب منعم (مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد العاشر ٢٠١١م، ص٧٠)، ودلالة الفرار في شعر الهذليين في العصر الجاهلي، لأحمد أبو خطة (مجلة الأثر، جامعة مقاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد الخامس ٢٠٠٦م).

التي تتناوله، كالفلسفة والمنطق واللسانيات ونظرية التواصل وعلم النفس وغير ذلك من الحقول. والمقاربة الحجاجية أوفقُ المقاربات لتحليل مثل هذا النوع من الشعر الذي يُعالج مسألة الإقناع: إقناع الآخرين، وإقناع النفس في بعض الأحيان.

ثم أختم البحث بخاتمةٍ بها أهم نتائجه.

ولم أرد أن أترجم لكل شاعر في البحث لكي لا تنتفخ الهوامش، بل اكتفيت بترجمةٍ مختصرة لبعضهم بما يخدم متن البحث وسياقه.

وأيضًا لم أفسِّر جميع ألفاظ الشعر الغريبة إلا ما وقر في قلبي أنه يُشكل منها، وأحلتُ على موادّ الكلمات من المعاجم مما لا يخفى على متخصص، وقد أحيل على بعض الكتب التي شرحت معنى الشعر.

وينبغي أن أشير هنا إلى أن أهم مصدرٍ من مصادر الشعر الذي هو مادَّة هذا البحث؛ هو كتاب (السيرة النبويَّة) الذي هذَّبه وزاد فيه ابن هشام، ونقل فيه أحكام النُّقَّاد وأهل العلم بالشعر، وكل المصادر بعده تنقل عنه نصوص هذا الشعر؛ وقد حرَصت على أن يكون الشعر المدروس في هذا البحث صحيحًا لم يعرض له شكٌّ في القديم أو الحديث، مما حَكم عليه ابنُ هشام أو غيرُه ممن نقل عنهم في كتاب (السيرة)، أو في غيره من الكتب.

❁❁❁

في المَفْهوم:

يأتي مفهوم الفرار في اللسان العربيّ دالًّا على الرَّوغان والهَرَب ، ومصدرُه: الفَرّ والفِرارُ. وقد فَرَّ يَفِرُّ فِرارًا: هَرَب. ويُقال: رجلٌ فَرُورٌ، وفَرُورةٌ، وفَرَّارٌ غير كَرَّارٍ، وفَرٌّ وصف بالمصدرْ؛ فالواحد والجمع فيه سواء، يقال منه: رجل فَرٌّ، ورجلان فَرٌّ؛ لا يُثنَّى ولا يُجمع. ثم تُشتقُّ منه: الفُرَّى: الكَتيبةُ المنهزمة. وتَفارُّوا: أي تهاربوا. وفرس مِفَرٌّ بكسر الميم: يصلح للفِرار عليه. وقوله تعالى: "أَين المَفَرُّ"، أَي: أَين الفِرارُ، وقُرئ: "أَين المَفِرُّ"، أَي: أَين

موضع الفرار[١]. وقد أَفْرَرْتَه إِفْرارًا إذا عَمِلْتَ به عملًا يَفِرُّ منه ويَهْرُب، وفي خبر عاتكة بنت عبد المطلب أنها قالتْ:

أَفَـرَّ صِـيَاحُ القَـوْمِ عَـزْمَ قُلُـوبِهِم فَهُـنَّ هَـوَاءٌ والحُلُـومُ عَـوازِبُ

أي حَمَلَها على الفِرَار، وجعلها خائفةً بعيدةً، غائبة العقول[٢].

❁❁❁

الفِرارُ في الشِّعر الجَاهليّ:

الفرارُ مذمومٌ عند العرب حتى قبل أن يُشرق عليهم نورُ الإسلام، إذ لم يـزل شـعراؤهم يتغنَّـون بالشـجاعة والإقـدام والنجـدة، ويمتـدحون أصـحابها، ويفتخرون بذلك في قصائدهم، كقول الحُصين بن الحُمام[٣] يذكر إقدام قومه، وأنهم لا يفرُّون فيُأتَوْن من خلفهم:

تَـأَخَّرْتُ أَسْـتَبْقِي الْحَيَـاةَ فَلَـمْ أَجِـدْ لِنَفْسِـي حَيَـاةً مِثْـلَ أَنْ أَتَقَـدَّمَا

فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا[٤]

ويصف عامر بن الطُّفَيْل[٥] حالَه وفرسَه يوم البأس، ذاكرًا خزاية الفرار له، فقال:

---

(١) انظر: لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الإفريقي، مادة: فرر ٥٠/٥ (تحقيق عبد الله علي الكبير وزميليه، دار المعارف، القاهرة).

(٢) تاج العروس، للزبيدي (فرر).

(٣) شاعر جاهلي فارس، من أوفياء العرب. قال أبو عبيدة: اتَّفقوا على أن أشعر المقلِّين ثلاثة: المسيب بن عَلَس وَالحُصين بن الحمام والمتلمِّس. انظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي ٣٢٦/٣-٣٢٧ (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٤/١٩٩٧م).

(٤) شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي ٦٠/١-٦١ (دار القلم، بيروت).

(٥) شاعر جاهلي من بني عامر، كانت له السيادة فيهم، له ذكر وأخبار، وفد على النبي ﷺ، ولكنه لم يُسلم (انظر: خزانة الأدب، للبغدادي ٨٠/٣).

إِذَا ازْوَرَّ من وَقْعِ الرِّماحِ زَجَرْتُهُ وقُلتُ لَهُ ارْجعْ مُقْبِلًا غيرَ مُدْبِرِ
وأَنْبَأْتُـــهُ أَنَّ الفِـــرَارَ خَزَايَـــةٌ عَلَى المَرْءِ ما لم يُبْلِ جَهْدًا ويُعْذِرِ[1]

إنَّ العرب تأنف من الفرار، وتعدُّه لؤمًا وخسَّة، ويُحذِّرون منه بكلِّ سبيل، ليس بالشعر وحدَه، بل وجدناهم يصنعون هذا فيما وقع إلينا من قليل ما رُوي من خطابتهم كذلك، كقول هانئ بن قبيصة وهو يُحرِّضُ قومَه على الثبات يومَ ذي قار: "يا معشر بَكْر: هالكٌ معذور، خيرٌ من ناجٍ فَرُور؛ إن الحذر لا يُنْجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظَّفَر. المنيَّة ولا الدنيَّة. استقبال الموت خيرٌ من استدباره. الطعن في ثُغَر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور. يا آلَ بكر، قاتلوا، فما للمنايا من بُدّ!"[2].

لقد كان الفرار والانهزامُ عن الأقوام عارًا وسُبَّةً يُرمى بها الفارُّ طولَ حياته، ولا يزالُ يُعيَّر بها عند العرب، ولا تُنْسى له. ولم يكن للفارِّين من حولٍ ولا قوةٍ يدرؤون بها عن أنفسهم هذا العار، غير أنَّ من الشعراء الموصومين بالفرار مَنْ سلك سبيلًا مناقضًا، إذ أبى أن يُذعن لما يُلاكُ في شأنه، فاتَّخذ من الجدل وسيلةً يَدْرأ بها عن نفسه التهمة، ويُحاولُ إقناع الناس بصحيح مذهبه، بل إنَّ منهم مَن أوغل في هذا، فمدح أمرَه، وأثنى على صنيع نفسه حين فَرّ! وقد كنتُ أظنَّ هذا النوع الطَّريفَ من المعنى قليلًا في الجاهلية، فوجدتُه ليس بالقليل، على خلاف ما يُظنُّ، وما يُشيعه كثرةُ الشعراء من التغني بالشجاعة والإقدام والاستبسال في المعركة، وقد تنبَّه الجاحظُ لهذا الأمر فقال: "وقد يفرُّ الأعرابي في الحرب، فلا يُقِرُّ بالجبن عن الأعداء، وبالنكول عن

(١) المفضَّليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي ص٣٦١-٣٦٢ (تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط/٦).
(٢) الأمالي، لأبي عليٍّ القالي، إسماعيل بن عيذون بن هارون ١٦٩/١ (دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٢٦م).

الأكفاء، بل يُخرِّج لذلك الفرار معنى، ويجعل له مذهبًا، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعرًا، ويشهره في الآفاق"[(١)].

نضربُ أمثلةً لهذا الجدال الذي عُرض في الجاهلية في نحو قول أوس بن حَجَر وهو يردُّ على من عيَّره في لقاء بني عَبْس، ولكنه غيرُ موقنٌ بصحيح مذهبه، بل نجدُه في شعره مضطربًا متلجلجًا في عرض حُجَّته في قوله:

أَجاعِلَـــةٌ أُمُّ الحُصَـــيْنِ خَزايَـــةً ... علـيَّ فِـرارِي أَنْ لَقِيـتُ بَـنِي عَـبْسِ
لَقِيـتُ أَبـا شَـأْسٍ وشَأْسًـا ومالِكًـا ... وقَيْسًـا فَجاشَـتْ مِـن لقـائِهِمُ نَفْسِـي
ولَمَّـا دَخَلْنـا تَحْـتَ فَيْـئِ رِمـاحِهِمْ ... خَبَطْتُ بكَفِّي أَطْلُبُ الأَرْضَ باللَّمْسِ
فأُبْـتُ سَـلِيماً لَمْ تُمَـزَّقْ عِمـامَتِي ... ولكـنَّهُمْ بـالطَّعْنِ قـد خَرَّقُـوا تُرْسِـي
ولَيْسَ يُعابُ المَرْءُ مِن جُبْنِ يَوْمِهِ ... وقَدْ عُرِفَتْ مِنْهُ الشَّجاعَةُ بالأَمْس![(٢)]

على أنَّ شاعرًا آخر هو سلمة بن الخرشب الأنماري يتعامى عن فَرَّته وما تشتمل عليه من الخزي، فيجنحُ إلى مدح فرسه التي نجا عليها، مدحًا يُوهمُ بالفروسيَّة والفتوة، كأنه لم يصنع أصلًا ما يُعاب عليه:

نَجوتَ بنَصْلِ السَّيْفِ لا غِمْدَ فَوقَه ... وسَـرْجٍ على ظَهْـرِ الرِّحالـةِ قـاتِرِ
فـأَثْنِ عليهـا بالـذى هِـيَ أَهلُـهُ ... ولا تَكْفُرَنْهـا؛ لا فَـلاَحَ لِكـافِرِ
فلو أَنَها تَجْرِي على الأَرضِ أُدْرِكَتْ ... ولكنَّهـا تَهْفُـو بِتِمْثَـالِ طـائِرِ[(٣)]

ويمدحُ وعلة بن عبد الله الجرمي نفسَه إذ فرّ، ويُشبهها بالعُقاب في طيرانها وبأسها، وكأنه يصفُ هجومَه لا فرارَه، فيقول من شعرٍ له:

---

(١) البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر ص٣٨ (تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١٠هـ).

(٢) الأمالي، لأبي عليٍّ القالي، إسماعيل بن عيذون بن هارون ١٦٩/١ (دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٢٦م).

(٣) المفضليات ص٣٦-٣٧.

ولَمَّا سمعتُ الخيلَ تدعو مقاعِسًا علمتُ بأن اليوم أغبرُ فاجرُ
نجوتُ نجاءً ليسَ فيه وتِيرةٌ كأني عُقابٌ دون تَيْمَنَ كاسِرُ

والتفسير عندي أنَّ الشعراء بَشرٌ من البشر، يكرهون الموت حتى لو ادَّعوا خلافه، وأنَّ الحادي لهم إلى لثبات لم يكن سوى العصبيَّة والذِّكْر، وهذان لا يصمدان أحيانًا أمام منظر الموت. إنَّ الشعراء في الجاهلية جنودٌ في رجال قومهم المقاتلين، يُعرف مَنْ ثبتَ منهم ويُعرفُ مَنْ فَرّ، ومن ذا سيلحن بحُجته في الدفاع عن نفسه إذا لم يلحن بها الشعراء من الناس، أربابُ البيان واللَّسَن!

غير أنَّ مالك بن خالد الخُناعي ينحو منحًى غريبًا في تعليل فراره، فهو قد فرَّ حين فر ليس خوفًا من الموت، بل من الأسر؛ فإنه يأنفُ منه، ولا يحبُّ أن يُقادَ كما يُقاد البعير، يقول:

لما رأَيتُ عَدِيَّ القوْمِ يَسْلُبُهُمْ طَلْحُ الشَّواجِنِ والطَّرْفاءُ والسَّلَمُ
كَفَّتُّ ثَوْبِيَ لا أُلْوِي على أَحَدٍ إِني شَنِئْتُ الفَتى كالبَكْرِ يُخْتَطَمُ

ومنهم من ادَّعى الرَّويَّة، فهو ذو عقلٍ وحزمٍ، يَثبت إن كان الثباتُ أجدى، ويفرُّ إن كان الفرارُ أحق، كما يصف عمرو بن معد يكربٍ نفسَه بقوله:

ولقد أجمعُ رجليَّ بها حذرَ الموتِ وإني لَفَرورُ
ولقد أعطفُها كارهةً حينَ للنفسِ من الموت هَريرُ
كل ما ذلك مِنِّي خُلُقٌ وبكلٍ أنا في الرَّوْع جديرُ[1]

(١) ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل ١١٢/١ (دار الجيل، بيروت، د.ت). ثم يقول أبو هلال في الموضع نفسه معقِّبًا: "وإنما دلَّ على أصالته وعقله في ثباته وقت الثبات، وفراره ساعة الفرار، وليس الشجاعة أن يحمل الرجل نفسه على الهلكة، إنما ذلك هوج، والشجاعة أن يتقدم وغالبُ ظنه أن يظفر، فأما أنه إذا علم أنه إذا أقدم هلك، ثم أقدم؛ فإن ذلك جنون؛ لأنَّ كل أحد يقدر أن يقدم على الهلكة فيهلك، وإنما الشأن في أن يُحمد غِبُّ إقدامه". ولسنا هنا في موضع الحكم على صحة ما ذهب إليه أبو هلال من مذهب، ولكننا بصدد الإشارة إلى معنى من المعاني المذكورة عند العرب في هذا الشأن.

ويجمع ذلك مالكُ بن أبي كعب في قوله:

لعمــرُ أبيهــا لا تقــول حَليلــتي ألا فــرَّ عــنِّي مالــكُ بــن أبي كَعْــبِ

أقاتــلُ حــتى لا أرى ليْ مُقــاتَلًا وأنجــو إذا غُــمَّ الجَبَــانُ مــن

يقول: أنا أهرب لأني شُجاع؛ لأنَّ الذي يُقتل في مأزق هو الجبان الذي يُرْتج عليه! وهذا من عجيب المعاني، ومن قلب الحقائق من غير شك، ولكنه الشعر.

لقد تعمَّدت نقل الشواهد الماضية لأدلَّ على أنَّ الفرار قديم في الجاهلية، قديمٌ صُنْعًا، وقديمٌ شِعرًا، وليس هذا فحسب، بل إنَّ للشعراء فيه المذاهبَ في تسويغه أو الاعتذار عنه، أو المكابرة في جعله حصافةً وحِكْمة، وهذه ظاهرةٌ سلوكيَّة ينبغي أنْ تُثبتَ في مكانها من فلسفة الأخلاق في بحث المجتمع الجاهلي، وفي بحث الأدب الجاهليّ كذلك، لا أقول إنها الأصل، بل كانت الشجاعة والإقدام والمحاماة عن الشرف والعرض والنفس والقوم هي الأصل، ولكنها ظاهرةٌ كان لها وجود كما نقلنا ذلك من أشعار الجاهليين أنفسهم.

❁❁❁

الفِرارُ في الإسلام:

الفرار من المعركة، والتَّولي يوم الزَّحف؛ مذمومٌ عند المسلمين ومحرَّمٌ في دين الله ﷻ، بل هو كبيرةٌ من كبائر الذنوب؛ قال الله ﷻ في كتابه الكريم يحثُّ المسلمين على الثبات في القتال: "يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُم فئةً فاثْبُتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تُفلحون"(٢)، ويقول في آياتٍ أخرى محذِّرًا من الفرار وعاقبتِه، وعاقبتُه غضبُ الله: "يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُم الذين كفروا زحفًا فلا تُوَلُّوهم الأدبار. ومَنْ يُولِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ، إلَّا مُتَحَرِّفًا لقتالٍ أو متحيِّزًا إلى فئةٍ؛ فقد

(١) معجم الشعراء، للمَرْزُباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران ص٣٥٨ (تصحيح وتعليق ف. كرنكو، مكتبة القدسي، بيروت، ط٢/١٤٠٢هـ).

(٢) سورة الأنفال، الآية ٤٥.

باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنَّمُ وبئس المصير"[1]. وقد عبَّرتْ الآيةُ الكريمة بلفظ (تولية الدُّبُر) وما يُوحيه من صورة الخزي والمهانة، تقبيحًا لهذا الصنيع، وتحقيرًا من شأنه.

إنَّ دواعيَ الثبات في القتال عند المسلمين أوثقُ من دواعي الجاهلية، فالمؤمن المجاهد في سبيل الله ظافرٌ في كلا الحالين بإحدى الحُسْنيين: النصرِ والغُنْم، أو الشهادةِ والجنَّة؛ فإذن يكون الفرارُ في الإسلام إثمًا ومشأمةً لصاحبه؛ إذ كأنه في نفسه غيرُ صادق، أو كأنه لا يُصدِّق بموعود الله ﷻ، فكأنما قد ضعُف قلبُه واهتزَّ إيمانُه ففرّ.

من أجل هذا يجد المؤمنُ الفارُّ في نفسه ما لا يجده غيرُه من الضيق والملامة والحزن، بل يكبرُ به الأمرُ حتى يصل إلى اعتزال قومه، ويظلُّ متوجّسًا من أن يحل به عذابُ الله ﷻ، وههنا افتراقٌ عظيم في هذا المعنى بين من يُحاجج عن فراره في الجاهلية، ومن لا يستطيعُ قولًا من المسلمين إذا هو فرّ، إنه ليس بقبيل السفسطة ذلك المسلمُ المجاهد في سبيل الله، فحاديه نُصرةُ دين الله فكيف إذن يفرُّ عنه، أما ذلك العربيُّ القديم فإنَّ المغريات بالثبات لا تكون كبيرةً إلا أن يكون صُلبًا حديدًا يغلب على ظنه الذِّكرُ والظَّفَر.

وقسْ على هؤلاء الجاهليين كفارَ مكة الذين حاربوا جيش المسلمين في صدر الإسلام، فهؤلاء أنشأوا أشعارهم تاريخيًّا في العهد النبويّ، إذا نحن أردنا تصنيف أشعارهم تصنيفًا زمنيًّا.

إنه إذن يدخلُ في إطار دراستنا الأشعارُ التي تناولت تلك الظاهرة لدى الفريقين: فريق المسلمين، وفريق المشركين، في ذلك العهد الزمني. على أنَّ الصراع الحربيُّ بين الفريقين لم يكن سببًا في نتاج الشعر في هذه الظاهرة وحدها، بل كان سببًا في إنتاج ألوانًا أخرى من الشعر في ذلك الوقت[2].

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥-١٦.

(٢) انظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي ص٢٣٢ وما بعدها (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/١٩٨٧م).

إنَّ دراسة الشعر في صدر الإسلام ينبغي ألَّا تقتصر على أشعار المسلمين وحدَهم، بل يجدر أن تقصد إلى أشعار المشركين فتبحثَها كذلك[1]؛ لكي يكتمل التصوُّر الأدبيُّ عن العصر الإسلاميّ الأول في قضاياه وظواهره الشعرية، ذلك التصور الذي بقي منقوصًا أو مشوَّهًا في كثيرٍ من الأمر.

❁❁❁

وَقْعَاتُ الفِرار:

هناك فرَّاتٌ مختلفةٌ حدثتْ في العهد النبويّ، تتفاوت شهرةً وذِكْرًا في العرب، وتتباين في مقدار التناول الشعريّ، وسوف نرتِّبها ترتيبًا زمنيًا في المجمل الأعمّ، ثم نحلِّل في خلال ذلك الخطاب الإقناعي الذي يردُ في تلك الأشعار، ونفصِّل القول فيما استعمله الشعراء فيها من الحُجج والمدافعة.

الفرارُ يومَ بدر:

١- فِرارٌ جَماعيٌّ للمشْركين:

أحدثتْ غزوةُ بدرٍ (سنة ٢هـ) فخرًا عظيمًا عند الشعراء المسلمين، وتعييرًا دائمًا لقريش، ولا سيّما من رُمي بالفرار منهم ذلك اليوم، واتخذ شعراء المسلمين هذا الفرار مطيَّةً هيّنةً يخدشون بها بَطَرَ قُريشٍ ورجالاتهم حينًا بعد حين.

لقد ذهب حسَّانُ بن ثابتٍ إلى أن الفرار يوم بدرٍ لم يكن فرار أفرادٍ، بل فرارًا جماعيًّا! وراح يذكر أسماء الفارّين من قريشٍ واحدًا واحدًا، متلذِّذًا بهجائهم، واصمًا إياهم بالعار، معيّرًا عن ذلك بألفاظٍ من وادٍ واحد، مرةً بلفظ (الفرار)، ومرةً بلفظ (التَّوَلِّي)، وثالثةً بلفظة (الإسلام) لقومهم، فيقول:

لَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ ... غَدَاةَ الأَسْرِ وَالقَتْلِ الشَّدِيدِ
بِأَنَّا حَيْنَ تَشْتَجِرُ العَوَالِي ... حُمَاةُ الحَرْبِ يَوْمَ أَبِي الْوَلِيدِ
قَتَلْنَا ابْنَيْ رَبِيعَةَ يَوْمَ سَارا ... إِلَيْنَا فِي مُضَاعَفَةِ الْحَدِيدِ
وَفَرَّ بِهَا حَكِيمٌ يَوْمَ جَالَتْ ... بَنُو النَّجَّارِ تَخْطِرُ كَالْأُسُودِ

(١) انظر: الشعر العربي في القرن الأول الهجري، للدكتور محمد مصطفى هدارة ص٧٧ (دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٨م).

وَوَلّـتْ عِنْـدَ ذَاكَ جَمُـوعُ فِهْـرٍ وَأَسْـلَمَهَا الحُـوَيْرِثُ مِـنْ بَعِيـدِ
لَقَـــدْ لَاقَيْـــتُمُ ذُلًّا وَقَـــتْلًا جَهِيـــزًا نَافِـــذًا تَحْـــتَ الوَرِيـــدِ
وَكُـلُّ القَـوْمِ قَـدْ وَلَّـوْا جَمِيعًـا وَلَمْ يَلْـوُوا عَلَى الحَسَبِ التَّلِيدِ[1]

لقد سمَّى حسَّانُ قومًا من الفارّين يوم بدر، في سياقٍ لا يُرادُ به التحديد والحصر، بل هو سياقُ التمثيل للدلالة على كثرة الفرار في فريق المشركين ذلك اليوم، ثم عيَّرهم بالضعف والهوان، حين لم يحموا شرفهم وأحسابهم من أن تمتهن بسُبَّة الفرار.

وما زال بهم يذكر نقيصتَهم، ويُضيّق عليهم بها في قصيدة تلو قصيدة، وهجاءٍ بعد هجاء، ولفظةٍ من ألفاظ المهرب لَفْقَ لفظة، فقد ذكر في الأبيات السابقة: "التعويل، والترك، والنَّجاء"، وتَرْكَ "العطف" على الأحبة بالسيف والبدن والجَنان؛ وأنَّ هؤلاء الفُرَّار كادوا يهلِكون مع ذلك، لولا شدَّةُ ركضهم، وحثِّهم دوابَّهم؛ خيفةَ المسلمين، فهو يذكر ذلك في قصيدةٍ أخرى له فيقول:

نَجَّـى حَكِيمًـا يَـوْمَ بَـدْرٍ شَـدُّهُ كَنَجَـاءِ مُهْـرٍ مِـنْ بَنَـاتِ الْأَعْـوَجِ
لَمّـا رَأَى بَـدْرًا تَسِـيلُ جِلَاهُـهُ بِكَتِيبَـةٍ خَضْـرَاءَ مِـنْ بَلْخَـزْرَجِ
لَا يَنْكُلُـونَ إِذَا لَقُـوا أَعْـدَاءَهُمْ يَمْشُـونَ عَائِـدَةَ الطَّرِيـقِ الْمَـنْهَجِ
كَـمْ فِـيهِمُ مِـنْ مَاجِـدٍ ذِي مَنْعَـةٍ بَطَـلٍ بِمَهْلَكَـةِ الْجَبَـانِ الْمُحْـرَجِ[2]

ويأتي خبرُ هذا الفرار القُرشي فيما يُروى من رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب قبل بدر، من طريق الزبير بن بكار عن مصعب بن عبد الله وغيره[3]، من أنها رأت مصارعهم في بدر، فلم تأبه قريش لرؤياها؛ فلما وقعت

(١) السيرة النبوية ١٩/٢.
(٢) السيرة النبوية ٢٢/٢.
(٣) في النفس شيءٌ من قصة هذه الرؤيا وما يُروى فيها من الشعر، ولعله لا يصحُّ كلُّ الشعر المنسوب إلى عاتكة في هذه الرؤيا، وهو اثنا عشر بيتًا، إلا بضعة أبياتٍ، لعل منها ما ذكرت؛ فقد احتجَّ به أصحابُ المعاجم في مادَّة (فرر) كما مثَّلتُ به في بحث معنى (الفرار) في مطلع هذا البحث.

المصيبة بقُريش، وأتى الخبرُ أهلَ مكة؛ قالت في صدق رؤياها وتكذيب قُريشٍ لها:

ألم تكــنْ الرُّؤيــا بحــقٍّ ويــأتِكُمْ بتأويلِهــا فَــلٌّ مِــنَ القَــوْم هــاربُ
ومَـا فَـرَّ إلا رَهْبَـةَ المَـوْتِ مـنهمُ حَكِيمٌ وقد ضَاقتْ عليه المَذاهِبُ
أَفَـرَّ صِـيَاحُ القَـوْمِ عَـزْمَ قُلُـوبِهِمْ فَهُـنَّ هَـوَاءٌ والحُلُـومُ عَـوازِبُ[1]

وهي هنا لا تعتذرُ لهم، بل هي تُبكّتهم جذلى بفوز النبي ﷺ يوم بدر. وهي لا تبحث لحكيم ولا لقومها عن الأعذار، بل إنها تعيبُ من صنيعهم، وتذكُرُهم بسوء، وتذكر أنهم فَرُّوا حين سمعوا صياح المسلمين بهم يوم الحرب، فضعُفت قلوبهم، ولانت عزائمُهم، حتى كأنَّ قلوبهم هواءٌ منزوعةٌ منها كل قوة، أو كأنَّ عقولهم قد طاشتْ فلم يعدْ فيها رَشَد.

والعجيبُ أنَّ الوصم بالفرار في حقِّ المشركين لم يأت من المسلمين فحسب، بل وصمهم به بعضُ أهلهم؛ فهذه صفيةُ بنت مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس تبكي أهل القَليب الذين قُتلوا ببدر، وتذكر فرار قومها عنهم، حتى إنَّ الأمَّ لتفرُّ من ولدها لا تعطف وجهها إليه، وذلك قولُها:

يَـا مَـنْ لِعَـيْنٍ قَـذَاهَا عَـائِرُ الرَّمَـدِ حَدَّ النَّهَارِ وَقَـرْنُ الشَّـمْسِ لَمْ يَقِدِ
أُخْـبِرْتُ أَنَّ سَـرَاةَ الأَكْـرَمِينَ مَعًـا قَـدْ أَحْـرَزَتْهُمْ مَنَايَـاهُمْ إِلَى أَمَـدِ
وَفَـرّ بِـالْقَوْمِ أَصْـحَابُ الرِّكَـابِ وَلَمْ تَعْطِـفْ غَدَاتَئِـذٍ أُمٌّ عَلَـى وَلَـدِ[2]

ولم يبلغنا ردٌّ ممن رُمُوا بالفرار من أهل مكة –فيما نعلم– إلا ما كان من أمر الحارث بن هشام، الذي فرَّ عن أخيه أبي جهلٍ وقومِه.

(١) المعجم الكبير، للطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب ٣٤٨/٢٤ (تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١/١٤١٥هـ).
(٢) السيرة النبوية ٤٠/٢.

٢- فَرَّةُ الحارث بن هِشَامٍ يوم بَدْر:

هذه فَرَّةٌ من أشهر الفرَّات في العهد النبوي، بل لعلها أشهرُها، بل لعلَّها أشهرُ فَرَّةٍ في تاريخ الأدب العربيّ، وذلك لسُمعتها التي طارتْ في العرب، فتلقَّفها شعراءُ المسلمين كحسان بن ثابت، الذي ما فتئ يذكرُها ويُعيدُها في كل موطن، يجرحُ بها قريشًا وفارسَها الحارث بن هشام(١)، ومما امتازتْ به هذه الفرة عن سواها أن الحارثَ صاحبها شاعرٌ، وقد دافع عن نفسه هجومَ حسان؛ فأخذ يعتذر عن صنيعه في أبيات، وبلغ من شهرتها أنها كانت تُذكر في أشعارٍ أخرى في غير معرض الهجومِ والصَّدّ.

ومع أنها كانت من فَرَّات المشركين في يوم بدرٍ، فإننا نُفردها بحديثٍ خاصّ بها لقيمتيْها الأدبيَّة والتاريخيَّة.

يصفُ حسانُ مشهد هَرَب الحارث بن هشام في غزوة بدر (سنة ٢هـ) حين فَرَّ فترك وراءه قومه وأخاه أبا جهل؛ فيذكر حسَّانُ اسمه مرخَّمًا على سبيل التهكُّم والهجاء، تهكُّمًا بالصنيع والرجل، ثم يمُطُّ هجاءه ويفصِّلُ الصورةَ الشعريَّة، وكأنه يعرض لحظة فراره بالحركة البطيئة؛ ليبالغ في إذلال نفس الحارث، وليُبْقي أثرها في الشعر أكبر قدرٍ ممكن، وأطول وقتٍ مستطاع، فيقول:

يَا حَارِ قَدْ عَوَّلْتَ غَيْرَ مُعَوَّلٍ ... عِنْدَ الْهِيَاجِ وسَاعَةَ الأَحْسَابِ
إِذْ تَمْتَطِي سُرُحَ الْيَدَيْنِ نَجِيبَةً ... مَرْطَى الجِرَاءِ طَوِيلَةَ الْأَقْرَابِ
وَالْقَوْمُ خَلْفَك قَدْ تَرَكْتَ قِتَالَهُمْ ... تَرْجُو النَّجَاءَ وَلَيْسَ حَيْنَ ذَهَابِ
أَلَّا عَطَفْت عَلَى ابْنِ أُمِّك إِذْ ثَوَى ... قَعْصَ الْأَسِنَّةِ ضَائِعَ الْأَسْلَابِ

(١) هو الحارث بن هشام المخزومي، شاعر قرشي، شهد بدرًا كافرًا مع شقيقه أبي جهل، وفرَّ حينئذٍ وقد قتل أخوه، فعُيِّر بها. أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه (انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي ٣٠١/١، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١٩٩٢/١م).

عَجِـلَ الْمَلِيـكُ لَـهُ فَأَهْلَـكَ جَمْعَـهُ بِشَـنَارِ مُخْزِيَـةٍ وَسُـوءِ عَـذَابِ[1]

وحسان يصنع ذلك بالحارث بن هشام على الخصوص لأنه شاعرٌ، وهو لسانُ قومه، والشاعر يحب أن يخاطب الشاعر، ويتلذَّذ بهزيمته في مثل هذا المقام الحربيّ، الذي انتصر في السِّنان، فبقي أن ينتصر فيه اللسان. ولأنه أخو أبي جهل، وأبو جهلٍ هو عدوُّ الله، وداعية قريشٍ إلى الثبات على الكفر، فكان شنُّ الغارة على أخيه مطلبًا يُريغه فحل شعراء المسلمين حسانُ في تلك الساعة.

ولذلك لا عجب حين نراه يُعيده، ويلوكه بلسانه كلما سنحتْ له فرصة؛ بل إنه يجعلُه صدرَ هجائه وتعييره قُرَيْشًا بالهزيمة، ويُقدِّم له بمقدِّمة غزليَّة طويلة، من أحسن مقدِّمات حسان في قصائده، كأنه يتغنَّى بالنصر، ويُغنّي منتشيًا بذكر المحبوبة، ويشمتُ بفعل الحارث، ويضحكُ مما صنع، فهو يبدؤها بدايةً غزليةً لا تشي بشيء، كأنه سيمدحُ أو سيذكرُ شيئًا، ثم يصعقهم، أو يصعق الحارث بن هشامٍ في تخلُّصه من الغزل بذِكْر فَرَّته، عل هذا النحو:

تَبَلَـتْ فُـؤَادَك فِي الْمَنَـامِ خَرِيـدَةٌ تَسْـقِي الضَّـجِيعَ بِبَـارِدٍ بَسَّـامِ
كَالْمِسْـكِ تَخْلِطُـهُ بِمَـاءِ سَـحَابَةٍ أَوْ عَـاتِقٍ كَـدَمِ الـذَّبِيحِ مُـدَامِ
نُفُـحُ الْحَقِيبَـةِ، بُوصُـهَا مُتَنَضِّـدٌ بَلْهَـاءُ غَيْـرُ وَشِـيكَةِ الْأَقْسَـامِ
بُنِيَـتْ عَلَـى قَطَـنٍ أَجَـمَّ كَأَنَّـهُ فُضُـلًا إِذَا قَعَـدَتْ مَـدَاكُ رُخَـامِ
وَتَكَـادُ تَكْسَـلُ أَنْ تَجِـيءَ فِرَاشَـهَا فِي جِسْـمِ خَرْعَبَـةٍ وَحُسْـنِ قَـوَامِ
أَمّـا النّهَـارَ فَـلَا أُفَتِّـرُ ذِكْرَهَـا وَاللّيْـلُ تُـوزِعُنِي بِهَـا أَحْلَامِـي
أَقْسَـمْتَ أَنْسَـاهَا وَأَتْـرُكُ ذِكْرَهَـا حَـتّى تُغَيَّـبَ فِي الضّـرِيحِ عِظَـامِي
يَـا مَـنْ لِعَاذِلَـةٍ تَلُـومُ سَـفَاهَةً وَلَقَدْ عَصَيْتُ عَلَى الْهَوَى لُوَّامِي
بَكَرَتْ عَلَيَّ بِسُحْرَةٍ بَعْدَ الْكَرَى وَتَقَـارُبٍ مِـنْ حَـادِثِ الْأَيَّـامِ

(١) السيرة النبوية ٢/١٩-٢٠ قال ابن هشام بعدها: "تركنا منها بيتًا واحدًا لأنه أقذع فيه".

زَعَمَتْ بِأَنّ الْمَرْءَ يَكْرُبُ عُمْرَهُ عَـدَمٌ لِمُعْتَكِـرٍ مِـنْ الْأَصْـرَامِ
إنّ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَـرَكَ الْأَحِبَّـةَ أَنْ يُقَاتِـلَ دُونَهُـمْ وَنَجَـا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَلِجَـامِ[1]

إنه هجومٌ مفاجئ، بعد هذا الغزل الجميل، وهو غزلٌ لا نظنُّه خالصًا لذاته، بل فيه من الرَّمز ما يتصل بحال المهجوّ، يظهر على هذا قارئُه حين يقرأ الهجاء، ثم يعيد قراءة القصيدة بغزلها من أولها؛ إذ هو يُعرِّض –في رأينا– بالحارث، وهو يذكر من كسل المرأة ما يذكر، ومن بلاهتها وثِقل جسمها ما توصَف به النساءُ المرغوبات: "وَتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا، فِي جِسْمِ خَرْعَبَةٍ[2]، نُفُجُ الْحَقِيبَةِ بُوصُهَا مُتَنَضّدٌ، بَلْهَاءُ غَيْرُ وَشِيكَةِ الْأَقْسَامِ!" إنه يُعرِّض بالحارث؛ فإذا كانت هذه الصفاتُ من جمال المرأة عندهم؛ لَإنها مقبوحةٌ إن وُصم بها رجل من الرجال.

وإنَّ هذا التخلُّص من التخلُّصات الحِسان، فهو يتَّسم باللطف والرشاقة، وهو مدهِشٌ؛ إذ ينتقل من حديث المرأة إلى حديث الفرَّة، وهذا مما يَكتب لقصيدته الذيوع، ويدمغُها بالعَجَب.

ثم هو ينخرط في معايرته انخراطًا شديدًا، ويُعْمِلُ فيه لسانه اللاذع، ويُفصِّل في طريقة فرَّته، ويُقبّح صنيعه؛ إذ كيف يترك أهلَه صَرعى، ويركض بفرسه، التي لولاها لطُحن، ثم يأخذ من هذا خيطًا –كما يصنع الشعراء– لينسج به مديح المسلمين، والهزج بانتصارهم، وبنصر الله لهم، في خلال سلقه للحارث بن هشام:

إنّ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَـرَكَ الْأَحِبَّـةَ أَنْ يُقَاتِـلَ دُونَهُـمْ وَنَجَـا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَلِجَـامِ

(١) السيرة النبوية ٢/١٧–١٨.

(٢) الخَرْعَبُ: الغُصن الناعم، والقضيبُ السامق الغَضّ. وامرأةٌ خرعبةٌ: رقيقةُ العظم، كثيرةُ اللحم، ناعمة (انظر: لسان العرب: خرعب).

تَــذَرُ العَنَــاجِيجُ الجِيَــادُ بِقَفْــرَةٍ مَــرَّ الــدَّمُوكِ بِمُحْصَــدٍ وَرِجَــامِ
مَـلَأَتْ بِـهِ الْفَـرْجَيْنِ فَارْمَـدَّتْ بِـهِ وَثَــوَى أَحِبَّتُــهُ بِشَــرِّ مَقَــامِ
وَبَنُــو أَبِيــهِ وَرَهْطُــهُ فِي مَعْــرَكٍ نَصَــرَ الْإِلَــهُ بِــهِ ذَوِي الإِسْــلَامِ
طَحَنَــتْهُمُ وَاللهِ يُنْفِــذُ أَمْــرَهُ حَــرْبٌ يُشَــبُّ سَــعِيرُهَا بِضِــرَامِ
لَــوْلَا الْإِلَــهُ وَجَرْيُهَــا لَتَرَكْنَــهُ جَــزَرَ السِّــبَاعِ وَدُسْــنَهُ بِحَــوَامِي[1]

إنَّ قصيدة حسان مُنْبنيةٌ على تعْيير الحارث، فهو يأخذ جزءًا من صورة هذا الفرار، ويبني عليه أجزاءه في هجاء الحارث بن هشام، أو مدح جيش المسلمين الثابتين، في عملٍ فَنِّيٍّ محدَّدٍ، واضح المعالم في ذهن الشاعر الفنَّان. وهو في هذا يُطيل من ذكر هذه الحادثة، ويمطُّها؛ إيذاءً منه لنفس الحارث، وتلعُّبًا به، وسخريةً من عارِ صنعته وشنيع وقعها عند العرب.

رَدُّ الحارث، وتَحْليلُ حِجاجِه:

كلُّ ذلك أوجع الحارث، ولم يستطع عنه سكوتًا، فردَّ بأبياتٍ مشهورةٍ كذلك، يعتذر فيها عن فراره، ويذكر أسبابه، ويُدافع عن نفسه سيلَ السِّهام الحسَّانيَّة:

اللهُ أَعْلَــمُ مَــا تَرَكْــتُ قِتَــالَهُمْ حَتَّى حَبَوْا مُهْرِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ[2]

---

(١) السيرة النبوية ٢/١٧-١٨، ثم قال ابن هشام في عقيب ردّ الحارث عليه: "تركنا من قصيدة حسان ثلاثةَ أبيات من آخرها؛ لأنه أقذع فيها" (السيرة ٢/٢٠).

(٢) قال السُّهيلي: "وقول الحارث بن هشام: حتى عَلَوْا مُهْري بأشقر مُزْبِدِ، يعني: الدم، ومزبد: قد علاه الزَّبد" (الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ٥/٣٦٨، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤١٢هـ). وبعد هذا البيت بيتٌ زائدٌ في الصناعتين:

وشممتُ ريح الموت من تِلقائهم في مأزق والخيل لم تَتَبَدَّدِ

ثم قال أبو هلال بعد إيراد الأبيات: "وهذا أول من اعتذر من هزيمة رويت عن العرب" (الصناعتين، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل ص٣٩٨، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ). وقوله ليس دقيقًا؛ فقد نقلنا من قبل في هذا البحث مَنْ اعتذر من فراره من شعراء الجاهلية.

وَعَرَفْــتُ أَنِّي إنْ أُقَاتِــلْ وَاحِــدًا أُقْتَلْ، وَلَا يَنْكِي عَدُوِّيَ مَشْهَدِي
فَصَـدَدْتُ عَـنْهُمْ وَالْأَحِبّـةُ فِـيهِمُ طَمَعًا لَهُـمْ بِعِقَـابِ يَـوْمٍ مُفْسِـدِ[1]

وهـو ردٌّ أشـبه بـالتملُّص منـه بـذكر الأسـباب المقبولـة عنـدهم، وردٌّ بالأمانيّ التي لا وجود لها في أرض الحقيقة، ولكنَّ الحارث ساق ردَّه بطريقته الفنيَّة، وهي طريقةٌ تعتمد على التجهيز والترتيب المعَدِّ من قبل، وبيان ذلك أنه ردٌّ استدعى عاطفة الشَّفقة ممن يعتبُ عليه ويلومه؛ وهي عاطفةٌ قد تدفع اللائم إلى أن يغفر للمذنب في بعض الأحيان. البداية بقوله: "الله أعلم"، بدايةٌ حِجاجيَّةٌ خالصة، فالجميعُ مؤمنٌ بأنَّ الله العليَّ أعلمُ بمكنون الصُّدور، فكأنَّ الشاعر يقولُ: لا أُعاملكم أنتم، بل أعامل الله، وأنا لم أكذب فيما أقول، والله يعلم ذلك. والإحالةُ على مقام الألوهيَّة إحالةٌ عاطفية يدرك الشاعر أثرها في النفوس. وهذا النوع من الحِجاج داخلٌ ضمن حُجج الاشتراك كما عند بروطون[2]، أو (الشَّهادة) كما عند أرسطو[3]. إذن هي بدايةٌ تلامس القلوب وتستجلب العاطفة، وتستمطر منهم تصديقه.

يقول: "قاتلتُ حتى الموت، حتى تلوَّن مُهري بالدم المنتثر الذي علاه الزبد، وهذه منزلةٌ من القتال لا مزيد عليها؛ أأُقتل يا قوم، وهذه حالي وهذا بأسي؟! ألم أفعل

(١) السيرة النبوية ١٩/٢.

(٢) تستدعي حجج الاشتراك عند بروطون: "المعتقدات أو القيم المشتركة مع المتلقي، والتي تحتوي مسبقًا، بشكل من الأشكال، الرأي الذي يكون موضوعًا لمشروع الاقتناع" (انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١، ترجمة محمد مشبال وعبدالواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/٢٠١٣م).

(٣) قال: "والأشياء المُقْنِعة: إما قولٌ تروم منه صحةَ قولٍ آخر، وإما شهادة. والشهادة: إما شهادة قول، وإما شهادة حال. وشهادةُ القول: مثل الاستشهاد بقولِ نبيٍّ أو إمام أو حكيم أو شاعر... وأما شهادة الحال: فإما حال تدرك بالعقل، أو حال تدرك بالحس. فأما الحال التي تدرك بالعقل فمثل فضيلة القائل، واشتهاره بالصدق والتمييز..." (انظر: الخطابة لأرسطوطاليس، بتلخيص ابن سينا ص٩). والحارث إنما اعتمد على ثقتهم به وبكلامه؛ فهو من أشراف قومه، وممن لا يُتَّهم فيهم بالكذب.

من أمور القتال ما يشفعُ لي؟"، وهو ههنا يُحرِّك عاطفةَ الشفقة فيهم، بل عاطفة العرفان لصنيعه ممن يُتوقَّعُ منهم اللوم، فيقبلون منه العذر إذ قد ترك القتال، أو قُل: توقَّف عنه.

ثم هو في خلال ذلك يقلب القضية، فيجعل من التهمة سبيلًا للدفاع، باتخاذه الخطاب العاطفي في قوله: "والأحبَّةُ فيهم"؛ إذ إن هذه التهمة: كيف تفرُّ عن أحبابك؟ فيقول: لقد فررت مع أنَّ أحبابي هنالك؛ وما كان لمثلي أن يصنع هذا إلا لشدة الموقف؛ لأن مثلي ما كان له أن يفرَّ إلا لما لا يُحتمل أو يُطاق.

لقد عمد الشاعر إلى حصر المعنى في هذه الصورة: صورة المهر المختلط بالدماء شنيعة المنظر؛ ليصرف الأنظار عن سوأة ما صنع من خليقة الهَرَب المكروهة عند العرب، ولعله نجح في تنسيتهم هذا مؤقَّتًا بهذه الصورة المكبَّرة للدماء التي علتْ وجه الفرس –وهي في الحقيقة ليست له بعذر؛ فالقتال جميعُه لا يخلو من الدماء– وهو ما يُسمَّى في المحاججة بطريقة (التأطير)[1]. ثم لم يترك لهم أنفسَهم لتعود إلى حقيقة الأمر، بل زادها عاطفيَّةً على عاطفيَّتها الآنيَّة، فأطلق هذا الخبر الذي يُفصِحُ باللفظ، لا بالإيحاء، عن حقيقة الصورة الماضية: "وَعَرَفْتُ أَنِّي إنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ". فكأنه رأى اللحظة مناسبة –والقوم فيما هم فيه من الانشغال بصورة المهر المضرَّج– أن يبوح بما كان يخاف أن يبوحَ به من قبل، فلعل القوم عاذروه حينئذٍ، أو لعلَّهم لن يلتفتوا إلى ما يقول؛ انشغالًا منهم بالصورة التي قبل.

وهذا يستبينه كلُّ قارئ للبيتين، فالصورة مُشْغِلةٌ حقًّا عما سيأتي بعدها من اللفظ.

(١) وهي تقوم أساسًا على "عرض الواقع من وجهة نظر معينة، بتفخيم بعض المظاهر مثلًا، وتهوين أخرى لأجل استخلاص شرعية الرأي" (انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١).

لقد وُفِّق الحارثُ في إيراد هذه الحُجَّة بهذه الطريقة، أو وُفِّق في الدفاع عن صنيعه في هذا الشعر، بغضِّ النظر عن حقيقة صحة ما صنعَ في الواقع.

ثم أخذ الشاعر يتسلسل في الحُجج، بحجةٍ أخرى مستولدةٍ من هذه الحُجة: "وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي" أي عندئذٍ، أي إن أنا قُتلت، فيكون خطأً ما صنعتُ مما يُزعم أنه بسالة، وهو في حقيقته تهوُّر؛ إذ لن يَضرَّ عدوِّي قتلي، بل سينتفع به، وهذا ما أرادوا، وهذا ما منعتُهم منه(١)!

إنه يستعملُ في ردِّه هذا حيلةً أو أداةً إقناعية أخرى يسميها علماءُ النفس (العقلنة) أو (التبرير)(٢)، وهي حيلةٌ دفاعيةٌ معروفةٌ من أدوات الدفاع عن النفس، يبحث بها صاحبها عن تسويغ فعلٍ لا يليق به أو فعل يحمل صفة الشَّناعة ويدعو إلى الإنكار، فـ"يبرّر المرء بهذه الحيلة سلوكه ومعتقداته وآراءه ودوافعه المستهجنة بأن يعطينا أسبابًا معقولةً لها"(٣)؛ إنَّ الحارث في خطابه قد استخدم عقله في موضعين: موضع انفراده في القتال وأنه سيُقتل لا محالة إن واصل القتال، وموضع أنه نجا بنفسه ليعود إلى قتالهم في موقفٍ آخر، والعقل قد يقبل هذا ويُسوِّغُه، فهذا احتجاجٌ آخر عقليٌّ (بالمصلحة الراجحة).

---

(١) إن من المستقرِّ المتعارف عليه أنَّ الأصل في القتال جَبْهُ العدوِّ وإزاحتُه، فإذا كان اليقين أن هذا غير متحقِّق، فإنَّ العقول ستأبى المواصلة فيه. وهذه حُجةٌ طرحها الشاعر في خلال هذا الشعر، ربما تدخل فيما أطلق عليه بروطون: حُجج الاشتراك، وهذا النوع من الحجج يستدعي "المعتقدات أو القيم المشتركة مع المتلقي، والتي تحتوي مسبقًا، بشكل من الأشكال، الرأي الذي يكون موضوعًا لمشروع الاقتناع".(انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١).

(٢) كلمة (التبرير) بهذا المعنى ليست دقيقة اشتقاقيًّا، وإنما يقصدون (التسويغ)، وقد أثبتُّ الشائع في علم النفس.

(٣) موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، لعبد المنعم الحفني ص٢٠٣ (مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٨م).

وفي الكلام –من طرْف خفيّ– تخطئةٌ لهم، ففيه من المعنى: إن المبتغى من القتال إيقاعُ الضرر بالعدو، والأذى به، فإنْ أنا قُتلتُ لم يقع هذا المراد؛ أليس من السَّفه حينئذٍ أن أصنع ما كنتم تبتغون؟ فكيف لو كان المبتغى من هربي من هذا الموضع الذي قُتل فيه الأحبة أو أوذوا أو أُسروا؛ أن أعود لأنتقم لهم؛ فليس المقصود أني أهرب من أجل الهرب، كلا، بل إني قد غادرتُهم لأعود:

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبّةُ فِيهِمُ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فالحُجَّة إذن –لو شئنا تصويرها في خُطاطة– حُجَّةٌ ذاتُ حركةٍ دائريَّة: (تركهم، ليعود)؛ فلا بأس حينئذٍ من هذا الترك؛ لأنه سيعود، فهو ليس تركًا إذن، بل هو بدايةُ العودة؛ أفليس من الحمق حينئذٍ أن يقطع طريق هذه العودة بإيقاعه نفسَه في مهاوي الرَّدى!

إنَّ هذا النوع من الحجة ينتمي إلى (الحُجج القائمة على بنية الواقع وفقًا للروابط)، إحدى هذه الحُجج –كما عند بيرلمان– الحجةُ النفعية، وهي التي تربط قيمة السبب بقيمة نتائجه، كهذا المثال: "هذه السياسة جيدة؛ لأن نتائجها المتوقعة جيدة"، وفي هذه الحالة يتعلق الأمر كما يقول بيرلمان، بالانتقال "من قيمةٍ مرتبطةٍ بالثمرة، إلى قيمةٍ مرتبطةٍ بالشجرة!"[(١)]. وهذه الحجة في رأيه "تتعرض للنقد من أصحاب التصورات المطلقة أو القطعية للقيم، خاصةً الأخلاقية"[(٢)]، كشناعة الفرار في الذوق العربيّ العامّ إذ ذاك.

إنَّ الجدل الدائر في هذين البيتين جدلٌ خطابيٌّ[(٣)] حِجاجيٌّ بكلِّ ما تحمله الكلمةُ من معنى، وقد أداره الشاعرُ بنفسه، من غير أن يُورد حجج

(١) انظر: تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٥٠.

(٢) انظر: تاريخ نظريات الحجاج ص٥١.

(٣) وهو يدخل ضمن الخُطب القضائية عند أرسطو، وقد قسَّم أرسطو الخطب اليونانية إلى ثلاثة أنواع: خطبٍ استشاريَّة، وموضوعها النصح بفعل شيء أو تركه. وقضائيَّة، وموضوعها الاتهام والدفاع. واستدلاليَّة، وموضوعُها المدح والذمّ. واعتمد في تقسيمه=

المخالفين، إلا ما استقرَّ في النفس من معرفة سوء تلك الفِعلة. وهو يعتمد على وجود (الجمهور) المترقِّب كيف سيجيب الشاعر عن خطيئةٍ في ظاهر عُرْف مجتمعه وقومه.

إنَّ الشعر هنا يجنح إلى استعمال الاستعارة في دعم الحُجج العقلية، وللقوم وَلَعٌ بمثل هذه الإجراءات الشعرية كالتشبيه والاستعارة والكناية ونحوها، وربما صرفتْهم عن كثيرٍ مما يؤمنون به مما استقرَّ في وِجدانهم، إن هم استحسنوها.

وليس غائبًا عنَّا أن الشاعرَ قد تباعد كل المباعدة عن أن يستعمل لفظتي (الفِرار) أو (النجاء) التي وصمَه بها حسَّانُ وهو يُعَيِّره ويشتفي منه، في قوله:

إنْ كُنْتِ كَاذِبَةَ الذِي حَدَّثْتِنِي فَنَجَوْتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامِ
تَرَكَ الْأَحِبّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ

بل استعاض عنها بلفظتي (الترك): "اللهُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ"؛ و(الصَّدّ): " فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبّةُ فِيهِمْ"؛ وفي هذا مهارةٌ حِجاجيَّةٌ واضحةٌ في أداء المعنى[1]، إذ صرف الأنظار عن المعنى موضعِ التُّهمة، وعبَّر عنه

=على عنصر الزَّمن، فالاستشاريَّة للحُكْم على أمورٍ مستقبليَّة، والقضائيَّةُ للحكم على أمورٍ ماضية، والاستدلاليَّة للحكم على أمورٍ حاضرة. وحدَّد لكل لونٍ غاية، فالاستشاريَّةُ غايتها تبيين النافع والضارّ، والقضائيَّة غايتها تمييز المشروع من غير المشروع، والاستدلاليَّة غايتُها بيان الجميل أو القبيح من الأفعال (انظر: الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس ص ١٦-١٩، حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م).

(١) يرى بعضهم في دراسة الشعر "أن اختيار لفظةٍ دون مرادفها قد يكون على أساس شكليّ، فهو لغاية إحداث التنغيم أو الإيقاع، بحيث تبدو قيمة اللفظ قيمةً شكلية محضة. لكنَّ الخطاب الحجاجي، لما كان مرتبطًا دائمًا بالمقام الذي يُقال فيه، إنما يعمد إلى استخدام هذه الكلمة دون مرادفها في اللغة؛ لكونها أنسبَ منه في ذلك المقام" (في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٣٦-٣٧، مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١/٢٠١١م).

بلفظتين أُخريين: لفظةٍ مخفَّفةٍ من المعنى الأصليّ هي (الترك)، ولفظةٍ بعيدة السبب عنه هي (الصَّدود)، والصدودُ والإعراض يكونان عن اختيارٍ لا إكراه فيه، أو لا إكراه عليه.

جاء في (العِقْد الفريد): سُئل بعض علماء الشعر: من أشعر الناس؟ قال الذي يُصوِّر الباطل في صورة الحق، والحقَّ في صورة الباطل، بلُطف معناه، ورقّة فِطْنته، فيُقَبِّح الحَسنَ الذي لا أحسن منه، ويُحسِّن القبيح الذي لا أقبح منه. ثم قال ابن عبد ربه: فمن تحسين القبيح قولُ الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بَدْر (فذكر أبيات الحارث الثلاثة). ثم قال: وهذا الذي سمعه صاحب الهند رُتْبيل، فقال: "يا معشر العرب، حَسَّنتم كل شيء فحَسُن؛ حتى حَسَّنتم الفرار!"[(١)].

❁❁❁

ومما يتصل بسياق فَرَّة الحارث يوم بدرٍ، وما ولَّدتْه من أشعارٍ أخرى فيما بعد؛ قصةٌ[(٢)] لأبي سفيان بن حرب في غزوة أحد (سنة ٣ هـ)، بعد سنةٍ من غزوة بدر؛ إذ التقى حنظلة بن أبي عامر الغسيل وأبو سفيان بنُ حربٍ في تلك المعركة، فلما استعلاه حنظلة بن أبي عامر، رآه شدَّاد بن الأسود –وهو ابن شَعوب– وقد علا أبا سفيان، فضربه شدَّادُ فقتله، فقال رسول الله ﷺ: "إن صاحبكم –يعني حنظلة– لتُغسِّلُه الملائكة"، فسألوا أهله: ما شأنه؟ فسُئلتْ صاحبتُه فقالت: خرج وهو جُنُبٌ سمع الهاتفة، قال ابن إسحاق: فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسَّلته الملائكة".

فقال شدَّاد بن الاسود يذكر إنقاذَه لأبي سفيان بن حربٍ وقتلَه حنظلة، مرتجِزًا:

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ١٨٤/٦ (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٤هـ).

(٢) انظر: السيرة النبوية ٧٥/٢-٧٦.

لَأَحْمِـــيَنَّ صَـــاحِبِي وَنَفْسِـــي
بِطَعْنَـــةٍ مِثْـــلِ شُـــعَاعِ الشَّـــمْسِ

فقال أبو سفيان بن حربٍ وهو يذكر تلك الحادثة، ويعترف بالفضل لابن شَعوبٍ في إنقاذه، ويُعَرِّض –وهذا هو الشاهد– بالحارث بن هشام الذي فرَّ، ولم يفرَّ هو، مع أنه لاقى الموت، ولكنه خاف تعيير قومه، وكأنها قد صارت سُبَّةً في جبين الحارث يُعيَّرُ بها مدى الدَّهر، يقول: لو شئتُ لفررتُ كما فرَّ الحارثُ يوم بدر، ولم أدعْ لابن شعوبٍ فضلًا عليَّ:

وَلَـوْ شِـئْتُ نَجَّتْـنِي كُمَيْـتٌ طِمِـرَّة وَلَمْ أَحْمِـلْ النَّعْمَـاءَ لِابْـنِ شَـعُوبِ
وَمَا زَالَ مُهْرِي مَزْجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمُ لَـدُنْ غُـدْوَةٍ حَـتّى دَنَـتْ لِغُـرُوبِ
أُقَـــاتِلُهُمْ وَأَدَّعِـــي يَـــا لَغَالِـــبٍ وَأَدْفَعُهُـمْ عَـنِّي بِـرُكْنٍ صَـلِيبِ[1]

إنه يذكرُ لفظة حسان في وصف فرس الحارث الفارّ: "طمرَّة"، ثم يذكر لفظة الحارث نفسه في وصف فرسه بـ"المُهر"، معرِّضًا به، وبهجاء حسَّان إياه.

رَدٌّ آخر للحارث، وتَحْليلُ حِجاجِه:

استدعتْ تلك الأشعارُ الحارثَ نفسَه مرةً أخرى ليذُبَّ عن نفسه، وكأنما قد صار شغله الشاغل الدفاع عن فَرَّته تلك ، قال ابن هشام: "وإنما أجاب الحارثُ بنُ هشام أبا سُفيان لأنه ظن أنه عرَّض به في قوله: "وما زال مُهْري مَزْجَرَ الكلب منهم"؛ لفرار الحارث يوم بدر"[2]؛ فقال الحارث بن هشامٍ:

وَإِنّـك لَـوْ عَايَنْـتَ مَـا كَـانَ مِـنْهُمُ لَأُبْتَ بِقَلْبٍ –مَا بَقِيتَ– نَخِيبِ[3]

(١) السيرة النبوية ٢/٧٥-٧٦.
(٢) السيرة النبوية ٢/٧٥-٧٦. ومعنى مَزْجَر الكلب: مسافة زجر الكلب، أي أنه كان قريبًا لم يفرّ.
(٣) النخيب: الجبان الذي لا فؤاد له (لسان العرب: نخب).

لَدَى صَحْنِ بَدْرٍ، أو لَقَامَتْ نوائحٌ عَلَيْكَ، وَلَمْ تَحْفِلْ مُصَابَ حَبِيبِ
جَزَيْتُهمْ يَوْمًا بِبَدْرٍ كَمِثْلِهِ عَلَى سَابِحٍ ذِي مَيْعَةٍ وَشَبِيبِ[1]

يقول: لو رأيتَ ما رأيتُ أنا في يوم بدر لجبُنتَ وذهبَ عقلُك؛ ففررتَ، ولم تحفل حينها لموت حبيبٍ قد مات، وإلّا تفعل فإنك كنت ستُقتل وتنوح عليك النوائح. والفرار محذوفٌ مقدَّرٌ يقتضيه السياق، وفي البيت تقديمٌ وتأخير يُفهم من الكلام.

ثم يقولُ: إنما فعلتُ ما رميتني به بسوء ظنِّك؛ لأجزيَهم كما وعدتُ ذلك اليوم –يوم بدرٍ– بيوم أُحُد، وقد صدقتُ ما وعدتُ به فلم أُخلِف، ووفيتُ بما قلت. وقد ساعد الحارث في الردّ ما كان في يوم أحدٍ من تقدم لجيش الكافرين، ما جعل حجاجه الأول يبدو كالصحيح، ولذلك أشار إليه هنا في قوله: "جَزَيْتُهمْ يَوْمًا بِبَدْرٍ كَمِثْلِهِ"، فهو يحتجُّ هنا بجانب خُلقيّ هو (الوفاء) بما يُنبئ عن صدقه والثقة فيه واستقامة حُجَّته.

وقد استخدم الحارث في ردّه على أبي سفيان بن حرب القضية الشرطية المنفصلة (إمّا – أو)، فترتيب كلامه منطقيًّا: لو عاينتَ ما كان منهم لم يكن لك إلا أمران: إما أن تؤوب فارًّا بقلبٍ منخلع، أو تقتل فتنوح عليك النوائح. فإحدى القضيتين منفصل ومعاند للأخرى، وهما لا يرتفعان معًا ولا

(١) هذه رواية الطبري (انظر: تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد ٥٢٤/٢ (دار التراث، بيروت، ط١٣٨٧/٢هـ)؛ وقد اخترتُ روايته لجودتها عن رواية السيرة لابن هشام (٧٧/٢) الذي وردت فيه الأبيات مقلوبةً بعيدة السياق، على هذا النحو:

جَزَيْتُهمْ يَوْمًا بِبَدْرٍ كَمِثْلِهِ عَلَى سَابِحٍ ذِي مَيْعَةٍ وَشَبِيبِ
لَدَى صَحْنِ بَدْرٍ، أَوْ أَقَمْتَ نَوَائِحًا عَلَيْكَ وَلَمْ تَحْفِلْ مُصَابَ حَبِيبِ
وَإِنّك لَوْ عَايَنْتَ مَا كَانَ مِنْهُمُ لَأُبْتَ بِقَلْبٍ مَا بَقِيتَ نَخِيبِ

يجتمعان معًا[١]. والمعنى: أنك كنت ستصنع ما صنعتُ -لزومًا- يا أبا سفيان.

لقد أراد الحارث لا الرد على أبي سفيان بمثل هذه الحجج، بل أراد إبلاغ رسالة إلى قومه وإلى كل من يسمع ممن يلومه ليقنعهم بصواب موقفه، فالحجاج في مثل هذا الموقف أداةٌ تواصليَّةٌ في أساسها، "إن الترابط بين الحجاج والتواصل يتوسع ليشمل ذلك الذي يقوم بين الحجاج والإقناع، فالحُجَّة لها غاية إقناعية أصيلة؛ لأنها تبحث عن إقناع المتلقي بفكرةٍ ما، أو جعله يتخذ سلوكًا معيَّنًا. أي أن الاهتمام بالحجة يقتضي ضمنيًّا الاهتمام بالإقناع"[٢].

والشاعر هنا أيضًا يستخدم أداةً إقناعيَّة أطلق عليها المناطقةُ (شهادة الحال)، ذلك أنَّ الأشياء المُقْنِعة عندهم: إما قولٌ تروم منه صحةَ قولٍ آخر، وإما شهادة. والشهادة: إما شهادة قول، وإما شهادة حال، وأما شهادة الحال فمنها ما يُدرك بالعقل، ومنها ما يُدرك بالحسّ، والحال التي تُدرك بالحسّ فإما قولٌ وإما غير قول، والقول مثل: التحدي، واليمين، والعهود[٣]؛ وهذا ما نقصده هنا؛ إذ قطع الحارث عهدًا على نفسه، ووفى به؛ هذا ما يحتجُّ به في البيت الأخير من شعره؛ وهو خطابُ إقناعه.

وهو هنا يعيد ما ابتدأه من حُجَّة للدفاع عن نفسِه، ومن استخدام حيلة (التعقُّل أو العقلنة) كما مرَّ في أبياته في جواب حسان؛ من أنه غادر المعركة في تلك الساعة لشدَّة ما رأى، لقد رأى الموت، وهو إن لم يفعل لألقى بنفسه

(١) انظر: المنطق، لمحمد رضا المظفر ص١٣٢ (دار التعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٦م).

(٢) تاريخ نظريات الحجاج، تأليف فيليب بروتون وجيل جوتييه ص١٤ (ترجمة الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط١/١٤٣٢هـ).

(٣) انظر: الخطابة، لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٩.

في التهلكة، فلم تُمْكنه العودة إلى أعدائه للانتقام منهم، كما قد صنع الآن، أفتُراني صنعتُ إثمًا يا أبا سفيان؟ هذا معنى ما في الأبيات من حُجَّة، ولا شك أنَّ فَهْمَها على هذه الصورة متصلٌ اتصالًا وثيقًا بثلاثة أبياتٍ الشهيرة التي قالها الحارث بنُ هشامٍ قبل، في سياقٍ ثقافيٍّ وفنِّي لا يكادُ ينقطع في تلك الحرب الدائرة بين الفريقين في تلك الأيام الشديدة من صدر الإسلام.

❁❁❁

الفِرارُ يوم الخَنْدق

٣- فِرَار المشركين يوم الخَنْدق:

لمَّا كانت غزوة الخندق (سنة ٥ هـ) أخزى الله الأحزاب، وألقى الرُّعب في قلوبهم، فهُزموا، وشُرِّدوا، وفرُّوا من جند الله ﷻ، وكان ممن قُتل منهم في تلك الغزوة فارس قريشٍ عمرو بن وُدٍّ الذي دعا للنزال في رهطٍ معه، فنازله عليُّ بن أبي طالب فقتله، وفرَّ عنه رهطُه وتفرَّقوا، وفي هذا يقول مُسافع بن عبد مناف بن وهبٍ الجُمَحي باكيًا عمرَو بن ودٍّ، وذاكرًا خِذلان رهطه إياَّه، وفرارهم عنه:

عَمْرُو بْنُ عَبْدٍ كَانَ أَوَّلَ فَارِسٍ ... جَزِعَ الْمَذَادِ وَكَانَ فَارِسَ يَلْيَلِ
سَمْحُ الْخَلَائِقِ مَاجِدٌ ذُو مِرَّةٍ ... يَبْغِي الْقِتَالَ بِشِكَّةٍ لَمْ يَنْكُلِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ حِينَ وَلَّوْا عَنْكُمْ ... أَنَّ ابْنَ عَبْدٍ فِيهِمُ لَمْ يَعْجَلِ
حَتَّى تَكَنَّفَهُ الْكُمَاةُ وَكُلُّهُمْ ... يَبْغِي مَقَاتِلَهُ وَلَيْسَ بِمُؤْتَلِي

ردُّ هُبَيْرة بن وَهْبٍ، وتَحْليلُ حِجاجِه:

وكان ممن فَرَّ يوم الخندق هُبيرة بن وهب[١]، الذي قال يعتذر من فراره، ويبكي عمرو بن ودٍّ القتيل بسيف عليٍّ ﷺ:

(١) شاعرٌ من قريش، أهدر النبي ﷺ دمه يوم الفتح، ففرَّ إلى نجران وأقام بها، ومات على كفره (انظر: المغازي، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد ٨٤٩/٢ (تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣/١٤٠٩هـ).

لَعَمْرِي مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمّدًا وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلَا خِيفَةَ الْقَتْلِ
وَلَكِنّنِي قَلَّبْت أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ لِسَيْفِي غَنَاءً إنْ ضَرَبْتُ وَلَا نَبْلِي
وَقَفْت فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِي مُقَدَّمًا صَدَدْتُ كَضِرْغَامِ هِزَبْرٍ أَبِي شَبْلِ
ثَنَى عِطْفَهِ عَنْ قِرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ مَكَرًّا، وَقِدْمًا كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي

إن الحُجَّة هنا زعمُ (التعقُّل) لا الطَّيش والسَّفَه، يقول: ما فررتُ جُبنًا ولا خوفًا من أن أقتل، وإنما تدبَّرت في أمري فلم أجد فائدةً للقتال والتقدُّم؛ فرجعتُ، ولو كان الأمر إلى هذا الحدِّ من الإقناع لربما ساغ، ولكنه غالى ودخل في حالة من حالات (الإنكار)[1] لأن يكون قد جبُن، فقال: حين تدبَّرت فرجعت، رجعتُ رجوع أسدٍ هِزَبْر، ثم أوغل في وصف ذلك الأسد الذي عنى به نفسه من أنه حين واجه قِرْنه في القتال صدَّ عنه حين لم يجد سبيلًا لهجومه؛ فهو أسدٌ لم يهرب، ولم يخف.

وهذا الإيغال في مدح النفس والتفاخر بها في موضع التهمة والتشنيع نوعٌ من (التعويض) النفسي، يملأ به المتَّهم بالعيب ما نقص من أخلاقه أمام الناس، هو في المقابل يشغلهم بمثل هذه الحيلة عما أحضروه من التهمة، إلى ذكر مآثر يعرفونها عن الشاعر. وهي وسيلةٌ دفاعيَّةٌ مكشوفة، لا تنطلي على كثيرٍ من الناس.

وقد نُقل في (عيون الأثر) عن الأصمعي أنه كان يفضِّل اعتذار الحارث، وأن خَلَفًا الأحمر كان يذهب إلى تفضيل اعتذار هُبَيْرة؛ ثم دوَّن صاحب الكتاب رجحان قول خلف، وأسباب تقديم شعر هبيرة، فقال: إنهما وإن "تقاربا لفظًا ومعنًى، فليس ببعيدٍ من أن يكون الثاني أجودَ من الأول؛ لأنه أكثر انتفاءً من الجبن ومن خوف القتل، وإنما علَّل فراره بعدم إفادة وقوفه فقط، وذلك في الأول جزءُ عِلَّته، والجزء الآخر قوله: أقتل، وقوله: رموا مهري بأشقر

(1)The Ego and The Mechanisms of Defence, Anna Freud, Karnak books, Exeter, 1993. P. 70.

مزبد، يعني الدم. ويحتمل أن يكون ذلك مقيَّدًا بكون مشهده لا يضرُّ عدوه، ومع ذلك فالثاني أسلم من ذلك معنى وأصرح لفظا ومعنى"(١).

ولا شكَّ عندي في أنَّ شعر الحارث مقدَّم، لافتضاضه بكارة المعنى، ولشدَّة احتجاجه بالعودة، وهذا ما لم يذكره هبيرة، ولتخلُّصه الحَسَن اللطيف إلى المعنى، وهذا ما تورَّط في خلافه هُبيرة؛ إذ كابرَ فزعم أنه ليثٌ هزبرٌ أبو شِبْلِ، مع أنَّ صنيعَه مذمومٌ مكروهٌ عند العرب(٢)!

وحتى لفظة (الصدود) تشي بأخذه المعنى من الحارث، ثم تباطر فيه –وهذا لم يصنعه الحارث– بأنه صدَّ كالضرغام الهِزَبر، ولم يذكر ما ذكره الحارث من أنه فرَّ ليعود؛ فالحركة الدائرية لم تكتمل هنا. وبين شعر الحارث في بدر، وشعر هُبيرة في الخندق ثلاث سنواتٍ فحسب، وكلاهما رجلٌ قرشيّ، فلا شكَّ –عند تدقيق النظر– في استنفاد هُبيرة أبياتَ الحارث بن هشام.

(١) عيون الأثر في المغازي والسِّيَر، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ٣٣٧/١ (تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).

(٢) وإلى هذا التفضيل ذهب العصاميّ، ولكنه لم يبيّن أسبابَه، إذ قال معقِّبًا على هذين الشِّعرين: "قلت: رأيت في كتاب ألف با للبلوي نقلًا عن الأصمعي وجماعات: أحسنُ ما قيل في الاعتذار عن الفرار، قول الحارث بن هشام هذه الثلاثة الأبيات. وخالفه من أئمة اللغة والأدب خلفٌ الأحمر ومن تبعه، فقال: أحسن ما قيل في الاعتذار عن ذلك: قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي، زوج أم هانئ بنت أبي طالب [فذكر أبيات هبيرة]، ولعمري، كلتا القطعتين [كذا] غايتان في المعنى المراد؛ ما لبليغٍ إلى أفضل منهما منتجع ولا مراد؛ إلا أنَّ الذي يحدوني إليه فكري وذوقي؛ ويجذبني بِردني وطوقي: هو ما ذهب إليه الأصمعي، فهل أنت أيها الناظر معي، فإن معي على ذلك شهودًا معدَّله؛ تثبت لعبد الملك الفخر له". (سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، للعصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي ١٠٨/٢، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ).

وهذا جدول يُظهرنا على هذه الفروق الشِّعرين:

	شعر الحارث بن هشام	شعر هُبيرة بن أبي وهب	التعليق
١-	اللهُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ .. حَتَّى حَبَوْا مُهْرِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ	لَعَمْرِي مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا .. وَأَصْحَابَهُ جُبْنًا وَلَا خِيفَةَ الْقَتْلِ	البداية بالقسم تشبه بداية الحارث الذي أوكل العلم إلى الله. وهُبيرة مع ذلك لم يذكر شدَّة القتال.
٢-	وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا .. أُقْتَلْ، وَلَا يَنْكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي	وَلَكِنَّنِي قَلَّبْت أَمْرِي فَلَمْ أَجِدْ .. لِسَيْفِي غَنَاءً إِنْ ضَرَبْتُ وَلَا نَبْلِي	الاحتجاج بأن القتال لا يُجدي ولا يُغني مأخوذٌ من الحارث.
٣-	فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةُ فِيهِمْ .. طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ	وَقَفْت فَلَمّا لَمْ أَجِدْ لِي مُقَدَّمًا .. صَدَدْتُ كَضِرْغَامِ هِزَبْرٍ أَبِي شَبْلِ ثَنَى عِطْفِهِ عَنْ قِرْنِهِ حِينَ لَمْ يَجِدْ .. مَكَرًّا، وَقِدْمًا كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي	لفظة (الصدود) تؤكِّد هذا الأخذ. ولكنَّ هبيرة اكتفى بهذا، وزاد الحارث أنَّ الصدود كان من أجل العودة، لا صدودًا لذاته. على ما في معنى هبيرة من الادعاء والفخر في غير محله.

ثم يخرج هُبيرة من فخره هذا إلى رثاء عمرو بن ودّ في محاولة لإبعاد الأذهان أقصى ما يكون عن فعلته، ولإظهار حُبِّه للرجل، وأنه لم يكن له أن يفرَّ عنه:

فَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا وَحُقَّ لِحُسْنِ المَدْحِ مِثْلُكَ مِنْ مِثْلِي

وَلَا تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيًّا وَهَالِكًا فَقَدْ بِنْتَ مَحْمُودَ الثَّنَا مَاجِدَ الأَصْلِ[1]

إلى آخر تلك القصيدة.

(١) السيرة النبوية ٢/٢٦٧-٢٦٨.

ولم يزل هُبيرة بن أبي وهبٍ يبكي عَمْرو بن وُدٍّ في قصيدِه، ويذكرُ محامدَه، ويلوم نفسَه على (تركه) –ولم يقل على (الفرار) عنه– ذلك اليوم، فيقول راثيًا إيَّاه، مؤنِّبًا نفسَه، في أبياتٍ أخرى منها قوله:

فَيَا لَهْفَ نَفْسِي إنَّ عَمْرًا تَرَكْتُهُ بِيَثْرِبَ لَا زَالَتْ هُنَاكَ الْمَصَائِبُ(١)

٤- فَرَّةُ عِكْرِمة بن أبي جهلٍ يوم الخَنْدق:

ومن خبر غزوة الخندق أيضًا (سنة ٥ هـ) أنَّ عمرُو بن وُدٍّ كان قد تيمَّم مكانًا ضيِّقًا من الخندق، فتقحَّم منه في جُنْدٍ له منهم عكرمة بن أبي جهل، ودعا للنزال، فنازله عليُّ بن أبي طالبٍ، فقتله، فلما رأى عكرمة بن جهلٍ ذلك ألقى رُمحَه وفَرَّ؛ فانبرى حسانُ بن ثابتٍ يهجوه ويسخرُ منه، ويشبِّه عدوَه يومَئذٍ بعدو الظَّليم، وهو أجبنُ الخلائقِ يُضرب به المثلُ في الجُبن، ويصوِّر منظره بمنظر صغير الضبع إذ يركضُ وهو يفرُّ محنيَّ الظهر، صاغرًا، رأسُه في الأرض:

فَـــرَّ وَأَلْقَـــى لَنَـــا رُمْحَـــهُ لَعَلَّـــكَ عِكْـــرِمَ لَمْ تَفْعَـــلْ
وَوَلَّيْـــتَ تَعْـــدُو كَعَـــدْوِ الظَّلِـــيمِ مَـــا إنْ تَجُـــورُ عَـــنْ الْمَعْـــدِلْ
وَلَمْ تَلْـــقَ ظَهْـــرَك مُسْتَأْنِسًـــا كَـــأَنّ قَفَـــاك قَفَـــا فُرْعُـــلْ(٢)

ولم يبلغنا –فيما نعلم– ردٌّ من عكرمة على هذا الشعر.

❁❁❁

٥- فِرارُ يهود خَيْبر:

مما يُروى في أخبار غزوة خيبر أنَّ رسول الله ﷺ حين افتتح تلك القرية (سنة ٧هـ) أعطى رجلًا اسمه ابن لُقَيمٍ العَبْسيّ(٣)، ما بها من دجاجةٍ أو داجنٍ، فأنشأ ابنُ لُقيم يقول في تلك الغزوة:

---

(١) السيرة النبوية ٢٦٨/٢.

(٢) السيرة النبوية ٢٢٦/٢.

(٣) جاء في (أسد الغابة) أن اسمه: عيسى بن لُقيم العبسي (انظر: أسد الغابة، لابن الأثير، أبي الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري، عز الدين ابن الأثير ٣٠/٤ (دار الفكر، بيروت ١٤٠٩هـ).

رُمِيَتْ نَطَاةٌ مِنْ الرَّسُولِ بِفَيْلَقٍ شَهْبَاءَ ذَاتِ مَنَاكِبَ وَفَقَارِ[1]
وَاسْتَيْقَنَتْ بِالذُّلِّ لَمَّا شُيِّعَتْ وَرِجَالُ أَسْلَمَ وَسْطَهَا وَغِفَارِ
صَبَحَتْ بَنِي عَمْرِو بْنِ زُرْعَةَ غُدْوَةً وَالشِّقُّ أَظْلَمَ أَهْلُهُ بِنَهَارِ[2]

ثم راح يحكي لنا مشاهد مما رآها في ذلك اليوم، يصور بها حال فرار اليهود من ديارهم، جارّين ذيولهم كنايةً عن الخوف والعَجلَة، وقد تركوا وراءهم دجاجهم تصيح في البيوت، ثم يمدح صحابة الرسول ﷺ بأنهم قومٌ لا يفرُّون كما فرَّت يهودُ خيبر:

جَرَّتْ بِأَبْطَحِهَا الذُّيُولُ فَلَمْ تَدَعْ إِلَّا الدَّجَاجَ تَصِيحُ فِي الْأَسْحَارِ
وَلِكُلِّ حِصْنٍ شَاغِلٌ مِنْ خَيْلِهِمْ مِنْ عَبْدِ أَشْهَلَ أَوْ بَنِي النَّجَّارِ
وَمُهَاجِرِينَ قَد اعْلَمُوا سِيمَاهُمُ فَوْقَ الْمَغَافِرِ لَمْ يَنُوا لِفِرَارِ
وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَيَغْلِبَنَّ مُحَمَّدٌ وَلَيَثْوِيَنَّ بِهَا إِلَى أَصْفَارِ[3]
فَرَّتْ يَهُودٌ يَوْمَ ذَلِكَ فِي الْوَغَى تَحْتَ الْعَجَاجِ غَمَائِمَ الْأَبْصَارِ[4]

وقد ذهب ابنُ هشام في تفسير البيت الأخير في الشعر مذهبًا بعيدًا فقال: "فَرَّتْ: كَشَفَتْ، كما تُفَرّ الدابَّةُ بالكشف عن أسنانها؛ يُريد كَشَفَتْ عن جفون العيون غمائمَ الأبصار، يريد الأنصار"[5]. هذا تفسيره، غير أنَّ السُّهيلي رأى في بعض النُّسَخ عن ابن هشام تفسيرًا آخر لا يخرج عن هذا، قال السُّهيلي: "وهو بيتٌ مُشْكِل، غير أنَّ في بعض النُّسخ وهي قليلةٌ عن ابن

(١) نطاةٌ: حصن بخيبر، وَقيل: عين بهَا. وَالْفَيْلَق: الكتيبة. والشهباء: الكثيرة السلاح (انظر: السيرة النبوية ٢/٣٤١).
(٢) السيرة النبوية ٢/٣٤١. والشّق، بِالْفَتْح وبالكسر: من حصون خيبر (انظر: السيرة النبوية ٢/٣٤١).
(٣) أصفار جمعٌ لشهر صَفَر، وخيبر فُتحت في صفر سنة سبع.
(٤) السيرة النبوية ٢/٣٤١.
(٥) السيرة النبوية ٢/٣٤١.

هشام أنه قال: "فَرَّت: فَتَحَتْ، من قولك: فَرَرْتُ الدّابَّةَ إذا فَتَحْتُ فاها. وغمائم الأبصار هي مفعول فَرَّت، وهي جفون أعينهم، هذا قول"(١).

ثم قال السُّهيلي: "وقد يصح أن يكون فَرَّت من الفرار، وغمائم الأبصار من صفة العجاج وهو الغبار، ونصبُه على الحال من العجاج وإن كان لفظُه لفظَ المعرفة عند من ليس بشاذٍّ في النحو ولا ماهرٍ في العربية، وأما عند أهل التحقيق فهو نكرةٌ لأنه لم يُرد الغمائم، وإنما أراد مثل الغمائم..."(٢).

ولعل ما ذهب إليه السُّهيلي أقوى؛ وذلك لذكر الشاعر الفرار قبلُ في معرض مدح الصحابة من أنهم لا يفرُّون. تلك إذن مديحةٌ لقومٍ من المؤمنين معروفين بالشجاعة والإقدام والثبات، هم المهاجرون، وقد قال فيهم من قبل كعبُ بن زهير في لاميَّته: لا يقعُ الطعنُ إلا في نحورهمُ؛ وذمٌّ للفارّين من اليهود، الذين هربوا من المعركة تحت عجاج الغبار، يتخبطُ بعضهم ببعض.

❁❁❁

الفِرارُ في فَتْح مكة:

٦- فَرَّةُ تَميم بن أسَد قُبيْل الفتح:

لما نقضت قريشٌ صلح الحديبية بنصرها بني بكرٍ بن عبد مناة بن كنانة حين عدتْ على خزاعة، وخزاعةُ كانوا في حِلف النبيّ ﷺ؛ استنصرتْ خزاعةُ النبيَّ ﷺ، فانبرى لينصرهم، وكان هذا سبب فتح مكة (في رمضان سنة ٨ هـ). وكان هذا النقض قُبيل الفتح بقليل.

وكان من حديث ذلك أنَّ أحد المقتولين من خزاعة كان اسمه مُنَبِّهًا، وكان مفئودًا، وكان معه رجلٌ منهم اسمه تميم بن أسد، قال له منبِّهٌ: يا تميمُ انجُ بنفسِك، فأمَّا أنا فوالله إني لميّتٌ قتلوني أو تركوني؛ لقد انبتَّ فؤادي. وانطلق تميمٌ فأفلتَ، وأدركو مُنبِّهًا فقتلوه(٣).

---

(١) الروض الأنف، للسهيلي ٥٦٨/٦.

(٢) الروض الأنف ٥٦٨/٦.

(٣) انظر حديث نقض هذا العهد في: السيرة النبوية، لابن هشام ٣٨٩/٢-٣٩١.

دفاعُ تميم بن أسَد ، وتحليلُ حِجَاجِه:

فقال تميم بن أسدٍ[١] يذكر ذلك اليوم، ويُبيّن لماذا فَرَّ من صاحبه:

لَمّـا رَأَيْـتُ بَـنِي نُفَاثَـةَ أَقْبَلُـوا يَغْشَـوْنَ كُـلَّ وَتِـيرَةٍ وَحِجَـابِ[٢]
صَـخْرًا وَرَزْنًـا لَا عَرِيـبَ سِـوَاهُمْ يُزْجُـونَ كُـلَّ مُقَلَّـصٍ خَنَّـابِ[٣]
وَذَكَـرْتُ ذَحْـلًا عِنْـدَنَا مُتَقَادِمًـا فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَحْقَابِ[٤]
ونَشَيْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَرَهِبْـتُ وَقْـعَ مُهَنَّـدٍ قَضَّـابِ[٥]
وَعَرَفْـت أَنْ مَـنْ يَثْقَفُـوهُ يَتْرُكُـوا لَحْمًـا لِمُجْرِيَـةٍ وَشِـلْوَ غُـرَابِ[٦]

إنه ثمة تهويل للصورة في الأبيات السابقة لكسب عاطفة المخالفين، وتهيئتهم للنتيجة الآتية في البيت التالي:

قَوَّمْـتُ رِجْـلًا لَا أَخَـافُ عِثَارَهَـا وَطَرَحْـتُ بِـالْمَتْنِ الْعَـرَاءِ ثِيَـابِي[٧]

هنا اعترافٌ بالهرب، من غير مواربةٍ أو تملُّص أو تفلسف. إنه يقول: هربتُ لئلا أموت، فقد شممت رائحة الموت، وخفت وقع المهند الذي سيُهلكني. وهذا تصريح نفعيٌّ بحت بحب الحياة وتجاهل المحامد المعنوية من الإقدام والبسالة ونحوها، إنها حُجَّةٌ (براغماتيَّة) كما يسمّيها بعضُ الدارسين، "وحدُّ هذه الحجة أنَّها الحجة التي يحصل بها تقويمُ عمل ما أو حدثٍ ما باعتبار نتائجه الإيجابية أو السلبية... إن مدار هذه الحجة كما قلنا على تثمين حدث ما

---

(١) قال ابن هشام: "وتُروى لحبيب بن عبد الله الأعلم الهُذليّ" (السيرة النبوية ٣٩٢/٢). وشرح غريب الأبيات الذي سيأتي بعد من المصدر نفسه.

(٢) الوتيرة: الأرض الممتدة. والحجاب: مَا اطمأنَّ من الأرض وخفي.

(٣) لَا عريب: أَي لَا أحد. ويزجون: يسوقون. والمقلص: الْفرس المشمر. والخناب: الْفرس الْوَاسِع المنخرين.

(٤) الذحل: طلب الثأر. والأحقاب: السنون.

(٥) نشى: شم. والمهند القضاب: السَّيْف الْقَاطِع.

(٦) المجرية: اللبؤة التي لها جراء، أَي أولاد. والشِّلو: بَقِيَّة الجسد.

(٧) الْمَتْن: مَا ظهر من الأَرْض وارتفع. والعراء: الخالي لا يخفى فيه شيء.

بذكر نتائجه، فعلى هذا لا يكون المقصود من هذه الحجة مجرد التثمين، بل توجيه العمل أيضًا"[١].

إنه يبني خطابه إذن على مقدمةٍ مطولة يذكر فيها الأسباب، ثم يقرنها بالنتيجة التي جعلها صالحةً يمليها العقل السليم.

ثم إنه وضع في حجاجه لبنةً ثالثة، بعد لبنتَيْ الأسباب والنتيجة، لبنة التخويف بالافتراض، إذ يقول للائمته: ثم إنك لو شهدت لدخلك الرعب حتى بلت من الخوف؛ والمعنى أن (نجائي) هو عين العقل والتصرُّف السليم مع أن القوم يعلمون أن لا أترك صاحبي عن طِيب نفس، إنه نداء العقل (البراغماتي) إذن، يقول[٢]:

وَنَجَوْتُ لَا يَنْجُو نَجَائِي أَحْقَبٌ عِلْجٌ أَقَبُّ مُشَمِّرُ الْأَقْرَابِ[٣]

تَلْحَى وَلَوْ شَهِدَتْ لَكَانَ نَكِيرُهَا بَوْلًا يَبُلُّ مَشَافِرَ الْقَبْقَابِ[٤]

القَوْمُ أَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ مُنَبَّهًا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ فَاسْأَلِي أَصْحَابِي

إن في البيت الأول من هذه القطعة تجاهلًا للإثم، وطمرًا له بالإيغال في الفخر؛ وذلك ليًّا للأعناق عما هو فيه من الخطأ، وهذه طريقة تتخذ مبدأ: (التجاهل والحيدة عن المسألة)[٥]، فمن دفاعٍ عن النفس يعمد الشاعر عمدًا إلى ذكر محامدها، متغافلًا عما يُرمى به من النقائص؛ وكلُّ هذا للتعمية والإلهاء.

---

(١) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٠.

(٢) السيرة النبوية ٣٩١/٢. وشرح الغريب من الكتاب نفسه.

(٣) نجوت: أسرعت. وأحقب: أَي حمار وَحش أَبيض الْمُؤخر، وَهُوَ مَوضِع الحقيبة. وعلج: وعلج: غليظ. وأقب: ضامر الْبَطن. ومشمر الأقراب: من قبض الخواصر وَمَا يَليهَا. ويروى: "مقلص الأقراب"، وَهُوَ بِمَعْنَاهُ.

(٤) تلحى: تلوم. والمشافر: النواحي والجوانب. والقبقاب: من أَسمَاء الْفرج.

(٥) انظر: المغالطات المنطقية: فصول في المنطق غير الصوري، لعادل مصطفى ص٥٩ (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م).

ثم إن الشاعر يتجاهل ذكر لفظ (الفرار)، ويذكر لفظة (الترك)؛ تنائيًا بنفسه وحاله عن هذه النقيصة، فهو نوعٌ من الدفاع النفسي الذي يصوره لغويًّا باختيار ألفاظه.

❁❁❁

٧- فِرار حِمَاس بن قَيْس والقُرشيين يوم الفتح:

من أخبار فتح مكة أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسُهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسًا بالخَنْدَمة[١] ليقاتلوا، وقد كان حِماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يُعِدُّ سلاحًا قبل دخول رسول الله ﷺ مكة، ويُصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تُعدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما أراه يقوم لمحمدٍ وأصحابه شيء. قال: والله إني لأرجو أن أُخْدِمَك بعضَهم، ثم قال:

إنْ يُقْبِلُوا اليَوْمَ فَمَا لِي عِلَّهْ
هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهْ
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ[٢]

ثم شهد الخَنْدَمة مع صفوان وسُهيل وعكرمة، فلما لقيهم جيشُ المسلمين انهزموا، فخرج حِماسٌ منهزمًا فارًّا حتى دخل بيتَه، ثم قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي. قالت: فأين ما كنت تقول؟!

رَدُّ حِماس، وتحليلُ حِجاجِه:

فقال حِماسُ بن قيسٍ يردُّ على امرأته، ويُحاجج عن نفسه:

---

(١) الخَنْدمة: جبل معروف عند مكة، كانت به وقعة يوم فتح مكة، ومنه يوم الخَنْدَمَةِ (انظر: لسان العرب: خندم).

(٢) الألَّة: الحَرْبة في نصلها عِرَضٌ، والألَّة: السِّلاح وجميع أداة الحرب (انظر: لسان العرب: ألل). الغِرارُ: حدُّ الرمح والسيف والسهم.وقيل: والغِرارانِ شَفْرتا السيف، وكل شيء له حدٌّ فحدُّه غِرارُه (انظر: لسان العرب:: غرر).

إنّــكِ لَــوْ شَــهِدْت يَــوْمَ الخَنْدَمَــهْ
إذْ فَــرَّ صَــفْوَانُ وَفَــرَّ عِكْرِمَــهْ
وَأَبُــو يَزِيــدَ قَــائِمٌ كَالمُوتِمَــهْ[1]
وَاسْــتَقْبَلَتْهُمْ بِالسّــيُوفِ المُسْــلِمَهْ[2]
يَقْطَعْــنَ كُــلَّ سَــاعِدٍ وَجُمْجُمَــهْ
ضَــرْبًا فَــلَا يُسْــمَعُ إلَّا غَمْغَمَــهْ[3]
لَهُــمْ نَهِيــتٌ خَلْفَنَــا وَهَمْهَمَــهْ[4]
لَمْ تَنْطِقِــي فِي اللّــوْمِ أَدْنَى كَلِمَــهْ! [5]

(١) أبو يزيد هو سُهيل بن عمرو المذكور في الخبر، من سادة قريش، أسلم عام الفتح وحسُن إسلامه (انظر ترجمته في: أسد الغابة ٣٢٨/٣). والموتمة من: أيْتَمَت المرأة وهي مُوتِمٌ: صار ولدُها يَتيمًا أو أولادُها يَتامَى، وجمعها مَياتِيمُ؛ وفي حديث عمر ﷺ: قالت له بنتُ خُفَافٍ الغِفاريّ: إنني امرأةٌ موتِمةٌ تُوفِّي زوجي وتَركَهم (انظر: لسان العرب: يتم).

(٢) أي: المسلمون.

(٣) الغَمْغَمةُ والتَّغَمْغُم: الكلام الذي لا يبين، وقيل: هما أصوات الثيران عند الذُّعْر، وأَصوات الأبطال في الوَغى عند القتال (انظر: لسان العرب: غمم). قال ابن الأثير: "وأما الغمغمة فقد تكون من الكلام وغيره، لأنه صوت لا يُفهم تقطيع حروفه" (الكامل، للمبرد الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد ١٦٥/٢ (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١٤١٧/٣هـ).

(٤) النَّهِيتُ والنُّهاتُ: الصِّيَاح، والنَّهِيتُ أيضًا: صوت الأسد دون الزئير؛ نَهَتَ الأَسدُ في زئيره يَنْهِتُ، بالكسر (انظر: لسان العرب: نهت). والهَمْهَمة: الكلام الخفيّ، وقيل: تَرْديد الصوت في الصدر. وهَمْهَمَ الرَّعْدُ إذا سمعتَ له دَوِيًّا (انظر: لسان العرب: همم).

(٥) السيرة النبوية ٤٠٨/٢. قال ابن هشام بعدما أثبتها لحِماس: "وتُروى للرَّعَّاش الهُذَلي" (السيرة ٤٠٩/٤).

لقد استخدم حماس الجملة الشَّرطية المتَّصلة[1] (لو شهدت – لم تنطقي)، وباعد بين جُزأيها –وهي جملة في طبيعتها الاتصال– ليشدَّ السامع فيسمع رغمًا عنه تهويله للموقف.

إن الشاعر يبني خطابه الإقناعي على مقدِّمة طويلة يُهوِّل فيها الموقف، ويذكر فيها الأسباب، كأنه يُقدِّم عريضة دفاعه المدعوم بالحُجج والقرائن؛ لينتهي إلى نتيجة مؤدَّاها: وجوب الاقتناع بما صنع، وعدم الإنكار على فعله، بل (الصمت) هو ما ينبغي أن يكون الردَّ الوحيد إقرارًا لصنيعه، وامتثالًا لكل ما ذَكر.

وقد جاء في حيل دفاعه احتجاجه بفرار كبار القوم ورؤسائهم، كصفوان وعكرمة، وقد تعمَّد أن يذكر لفظة (الفرار) مسندًا إليهما في هذا الموضع لسببين: أن ينسب الفرار إلى غيره، وأنهم كانوا القدوة الذين تبعهم مَنْ معهم، فلا يحملُ هو إثمَ ما حدث، وهذا احتجاجٌ بـ(صلاح الحال) كما يذكر أرسطو[2]؛ إذ كيف نخالف عن أمر قادتنا الكبار؟ والسبب الثاني في ذكره لفظ (الفرار) منسوبًا إلى غيره: نفيُه عن نفسه هو، فكأنَّ ما تدَّعون من حَدَث الفرار صنَعَه هؤلاء أولًا ولم أبتدئه أنا.

وفي دفاعه جانبٌ عاطفيٌّ تأثيريّ، فهو يُهوِّل مشهد القتال تهويلًا عظيمًا يُخيف القلوب: حيث برقتْ سيوفُ المسلمين، وهي تفري العظام فريًا، فتقطع الرؤوس وتخُرُّ الأيدي، قطعًا سريعًا فاتكًا، وهؤلاء الجنود الأشدَّا يُسمع لهم أصوات عظيمةٌ، وجلَبَة مُرْعِبة، وهم لا يُفلت من تحت أيديهم أحد؛ وقد كنا نسمع صياحَهم خلفنا ولغَطَهم الشَّديدَ، فكأنهم الأسود المُزمجرة، إنكِ إن سمعت هذا يا امرأة، أو رأيتِ ما قد رأيتُ، "لم تنطقي في اللومِ أدنى كلمة".

---

(١) انظر: المنطق، لمحمد رضا المظفر ص١٣٢.

(٢) ذهب أرسطو إلى أنَّ "العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب ثلاثة، إذ إن هناك ثلاثة أسباب –من غير البراهين– تدفعنا إلى الثقة، هذه هي: السدادُ والفضيلةُ والبِرّ" (مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي ص٢٨، وقد ترجم كلام أرسطو هذا عن الترجمة الفرنسية لكتاب الخطابة، لأرسطوطاليس المنشورة بباريس ٢٠٠٧م).

إنه يُثير شفقة المخاطَبين –لا امرأته وحدها– بهذا المشهد المَهُول، شفقتهم عليه، وهذا ليس فيه احتجاجٌ كلامي، بل هو حُجَّةٌ عاطفية لا برهانيَّة، إنها (بلاغة مشاعر)، أكبر منها (بلاغة استدلال)(١).

إنه يريد أن يقول: كيف لا أفرُّ وقد جعل هذا المشهدُ المرعب صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وهما من سادتنا؛ يفرَّان، وجعل أبا يزيد سُهيل بن عمرٍو وهو من قادتنا وكبرائنا واقفًا مهمومًا لا يلوي على شيء كالمرأة الموتمة، وهي ذات العيال التي مات زوجها عنها.

إنَّ هذه الأبيات تدخل ضمن ما يُعرف في الأدب العربي بـ(المُنْصفات) من الشِّعر، وفي الإنصاف نَفَسٌ حجاجي، و"لهذا كان أئمةُ البلاغة في الغرب ينصحون الخطيب... بأن يمتدح خصال الخصم الخطابيَّة، وأن يُخفي أو يُهوِّن من خصاله هو في ميدان الخطابة، وذلك من أجل ألَّا تحدث قطيعةٌ بين الشكل والمضمون"(٢).

إنَّ ههنا نوعين من الحُجة عند المنظِّرين: حجة السلطة، وحجة التأطير.

فأما (حُجَّة السُّلْطة) فهي "التي تَستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حُجَّةً على صحة أطروحةٍ ما"(٣)، وهي تعتمد في "الاحتجاج لفكرة أو رأي أو موقف على قيمة صاحبها"(٤)؛ وهذا مسلك حماس في احتجاجه بصنيع ثلاثة الرجال الكبار من أشراف قومه، وصنيعُهم له قوة احتجاجية يستطيع أن يحتجَّ بها من يريد الاحتجاج، فهم نموذجٌ يُحتذى به، وقدوةٌ يُؤتسى بهم. ولذا أطلق بعضهم على هذا النوع من الحُجة (حُجَّة النموذج)(٥).

---

(١) تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٢٩.

(٢) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٦٥.

(٣) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٢.

(٤) الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي ص٢٣٢ (عالم الكتاب الحديث، إربد ٢٠١١م).

(٥) انظر: تاريخ نظريات الحجاج، لبروتون وجوتييه ص٥٤.

وأما (حُجَّة التأطير) كما يُسمّيها بعض الباحثين[١]، فهي التي تتجه إلى جزءٍ ما فتعظِّمه وتكبِّره بُغية التأثير العاطفي في نفوس المخاطبين. وإننا نتوخَّى في عرض هذا النوع من الحُجَّة "كثرة الإشارات إلى الدقائق والرقائق المتعلِّقة بذلك الموضوع، تكثيفًا لحالة الحضور التي نريد أن يتَّسم بها موضوعُنا في ذهن السامعين، ولإحداث الانفعال أيضًا؛ إذ بقدر ما يكون الموضوع مخصوصًا يكون أبعثَ على الانفعال، ونصل إلى هذه الخصوصية بواسطة ذكر الدقائق والرقائق تلك... إنَّ مما يساعد على الإشعار بمدى حضور الحدَث ذكر مكان ذلك الحَدَث وزمانه، مع ميلٍ إلى استخدام اللفظ الحِسّي المجسَّد دون اللفظ المجرَّد"[٢].

إنَّ هذا ما نشهده عند حِماس وهو يصف تلك الوقعة، فيعتمد التشبيه[٣]، ويختار أن ينقل لنا صورة الصوت لا لفظَه، لكي نعيش في أحداث تلك اللحظة الصعبة كما أرادها أن تكون، فهو يصفُ أصوات المقاتلين الذين هرب منهم – لشدَّتهم ومُضيِّهم وبأسهم– بأوصافٍ مصوِّرة، كالنَّهيت، والهمهمة، والغمغمة، ولم يقل: "لهم صوتٌ شديدٌ أو مرعب"؛ إلى ما في الشعر من صورٍ تهويليَّة أخرى لقطع السواعد والجماجم، وما وراء ذلك مما يمكن تخيُّله قياسًا على ما اختار الشاعرُ ذكره.

إنَّ الشاعر يريد لا مراء أن يكسب تعاطُفنا[٤]، لكي تعذِرَه زوجتُه – ونعذِره نحن– فيما صنع من تلك الفَرَّة.

ولقد اختار الشاعر (الرجَز) وهو بحر سريع النَّغم، قاطعٌ، ليُشبِّه صورةَ السُّرعة في قطع الجماجم والسَّواعد، ولئلا يكون ثمة مجال في البحر لعرض آراء المخالفين، بل هو أتى ببراهينه وحُججة سريعةً متوالية؛ ثقةً منه

(١) انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١.
(٢) في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٣٥-٣٦.
(٣) انظر في الأثر الحجاجي للتشبيه والاستعارة: الحجاج في الشعر العربي، للدكتورة سامية الدريدي ص٢٥٣.
(٤) انظر في استدرار العطف: المغالطات المنطقية، لعادل مصطفى ص٩٣.

في نجاح أثرها في قلوب المخاطبين. وحتى القافية المنتهية بهاء السكت الصامتة الساكنة، تفي بما أراد الشاعر أن يبلِّغه من رسالة.

❁❁❁

الفرارُ يوم حُنين:

٨- فَرَّةُ قارب بن الأسود وقومِه يوم حُنين:

وقعت غزوة حنين في (سنة ٨ هـ) بعد فتح مكة، تجمَّعت فيها جموع هوازن وثقيف برئاسة عوف بن مالك، وكانت رايةُ الأحلاف مع قارب بن الأسود، فلما نصر الله نبيَّه وانهزم هؤلاء أسند قاربٌ رايتَه إلى شجرة وهرب هو بنو عمه وقومُه من الأحلاف، فلم يُقتل منهم سوى رجلين. فأنشأ عباس بن مرداسٍ السُّلمي –وكان في جيش النبي ﷺ– يروي أحداث تلك الغزوة، ويبدأ قصيدتَه بمدح النبي ﷺ، فيقول:

أَلَا مَــنْ مُبْلِــغٌ غَــيْلَانَ عَــنِّي وَسَــوْفَ إِخَــالُ يَأْتِيــهِ الْخَبِــيرُ
وَعُــرْوَةَ إِنَّمَــا أُهْــدِي جَوَابًــا وَقَــوْلًا غَيْــرَ قَوْلِكُمَــا يَسِــيرُ[1]
بِــأَنَّ مُحَمَّــدًا عَبْــدٌ رَسُــولٌ لِــرَبٍّ لَا يَضِــلُّ وَلَا يَجُــورُ[2]

ثم يهجو قاربَ بن الأسود ويذكرُ فرارَه من بني أبيه، ونجاءه بنفسه ومَن معه، فيقول من أبيات القصيدة:

فَجِئْنَــا أُسْــدَ غَابَــاتٍ إِلَــيْهِمْ جُنُــودُ اللهِ ضَــاحِيَةً تَسِــيرُ
نَــؤُمُّ الْجَمْــعَ جَمْــعَ بَــنِي قَسِــيٍّ عَلَــى حَنَــقٍ نَكَــادُ لَــهُ نَطِــيرُ
وَأُقْسِــمُ لَــوْ هُــمُ مَكَثُــوا لَسِــرْنَا إِلَــيْهِمْ بِــالْجُنُودِ وَلَمْ يَغُــورُوا[3]

أي أنهم فرَّوا ونجوا بأنفسهم، ولو مكثوا لرأوا ما يكرهون. ثم يقول:

---

(١) غيلان: هو غيلان بن سلمة الثقفي، وعروة: هو ابن مسعود الثقفي (انظر: السيرة النبوية ٢/٤٥٢).

(٢) السيرة النبوية ٢/٤٥٠.

(٣) السيرة النبوية ٢/٤٥٠.

بَنُــو عَــوْفٍ تَمِــيحُ بِهِــمْ جِيَــادٌ أُهِــينَ لَهَــا الْفَصَــافِصُ وَالشَّــعِيرُ
فَلَــوْلَا قَــارِبٌ وَبَنُــو أَبِيــهِ تُقُسِّــمتِ الْمَــزَارِعُ وَالْقُصُــورُ

أي: فلولا أنه فرَّ ونجا بنفسه ومن معه، لتُقسِّمت مزارعهم وبيوتاتهم، ولكنه نجا. ثم يُتبع ذلك بقوله:

وَلَكِــنَّ الرِّيَاسَــةَ عُمِّمُوهَــا عَلَــى يُمْــنٍ أَشَــارَ بِــهِ الْمُشِــيرُ
أَطَــاعُوا قَارِبًــا وَلَهُــمْ جُــدُودٌ وَأَحْــلَامٌ إِلَى عِــزٍّ تَصِــيرُ
فَــإِنْ يُهْــدَوْا إِلَى الإِسْــلَامِ يُلْفَــوْا أُنُوفَ النَّاسِ مَا سَمَرَ السَّمِيرُ... (١)

وهذا الهجاء بالفرار أعقبه دعوةُ الشاعر هؤلاء الفارّين إلى الإسلام، وهذه هي الغايةُ من القتال عند المسلمين، كأنه يقول لهم: إن كنتم قد أنجاكم الله بالفرار –على ما فيه من العار– فانجوا بأنفسكم حقًّا وأسلموا.

ولم يبلغنا ردٌّ على هذا الشعر.

❁❁❁

٩- فَرَّة مالك بن عَوْفٍ في حنين، وردُّه، وتحليلُ حِجَاجِه:

وفي تلك الغزوة، غزوة حُنين (سنة ٨ هـ)، اجتمعت ثقيفٌ وهوازن على حرب رسول الله ﷺ، وكان سيد هوازن يومَئذٍ مالك بن عوف(٢)، وإليه جُمَّاع الناس جميعًا من هوازن وثقيف؛ فلمَّا ثبَّت الله نبيَّه وانهزم أهلُ الطائف، فرَّ مالك بن عوفٍ من تلك المعركة، وأخزى قومه، فقال قصيدةً ميميَّةً بعد

(١) السيرة النبوية ٢/٤٥٠-٤٢٥.

(٢) هو مالك بن عوف من بني نصر بن معاوية، من هوازن، كان رئيس هوازن وهم يحاربون مع ثَقيفٍ رسولَ الله ﷺ في الطائف، في غزوة حُنين (انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد ١١/٣٨٧، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، ط١/١٤٢٢هـ)، ثم تألَّفه رسولُ الله ﷺ فأسلم وحسُن إسلامُه (انظر: مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، لإبراهيم بن إبراهيم قريبي ٢/٤٧٩، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١/١٤١٢هـ).

ذلك يعتذر فيها من فراره ذلك اليوم، وهو يبدؤها بهذا الغزل المقتضب المقرون بالفخر:

مَنَعَ الرّقَادَ فَمَا أُغَمِّضُ سَاعَةً ... نَعَمٌ بِأَجْزَاعِ الطَّرِيقِ مُخَضْرَمُ
سَائِلْ هَوَازِنَ هَلْ أَضُرُّ عَدُوَّهَا ... وَأُعِينُ غَارِمَهَا إِذَا مَا يَغْرَمُ
وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ ... فِئَتَيْنِ مِنْهَا حَاسِرٌ وَمُلَأَّمُ
وَمُقَدَّمٍ تَعْيَا النّفُوسُ لِضِيقِهِ ... قَدَّمْتُهُ وَشُهُودُ قَوْمِيَ أَعْلَمُ
فَوَرَدْتُه وَتَرَكْتُ إِخْوَانًا لَهُ ... يَرِدُونَ غَمْرَتَهُ، وَغَمْرَتُهُ الدَّمُ
فَإِذَا انْجَلَتْ غَمَرَاتُهُ أَوْرَثْنَنِي ... مَجْدَ الْحَيَاةِ وَمَجْدَ غُنْمٍ يُقْسَمُ

ثم يذكرُ ما رماه به قوه من فراره يوم حُنين من جيش النبيّ محمدٍ ﷺ وأصحابه، ويعتذر عن ذلك بفرارهم عنه وخِذلانهم إياه، ويُنسيهم ما كان منه ذلك اليوم بإلقاء اللوم عليهم، من أنه يبني وهم يهدمون، يبني لهم مجدهم وهم يهدمونه، ثم يُفضّل نفسَه عليهم، يمنُّ عليهم، يشغلهم بمثل هذا عن فعلته:

كَلَّفْتُمُونِي ذَنْبَ آلِ مُحَمَّدٍ ... وَاللهُ أَعْلَمُ مَنْ أَعَقُّ وَأَظْلَمُ
وَخَذَلْتُمُونِي إِذْ أُقَاتِلُ وَاحِدًا ... وَخَذَلْتُمُونِي إِذْ تُقَاتِلُ خَثْعَمُ
وَإِذَا بَنَيْتُ الْمَجْدَ يَهْدِمُ بَعْضُكُمْ ... لَا يَسْتَوِي بَانٍ وَآخَرُ يَهْدِمُ

والحقيقة أنه كان سببًا من أسباب هدم ذلك المجد لقبيلته حين فر من المعركة فألبسهم العار، وهذا النوع من الدفاع يُسميه علماءُ النفس: (الإسقاط النفسي)، وهو حيلة دفاعية من الحيل النفسية اللاشعورية، وعملية هجوم يحمي الفرد بها نفسه بإلصاق عيوبه ونقائصه ورغباته المحرَّمة أو المستهجنة بالآخرين، كما أنها عملية لوم لغيره على ما فشل هو فيه بسبب ما يضعونه أمامه من عقبات، وما يوقعونه فيه من زلّات أو أخطاء[1].

(١) انظر: Sigmund Freud, Case Histories II (PFL 9) p. 132

ثم إنه يتمادى فيذكر صنائعَه ويفخر بنفسه، وكأنَّ لسان حاله يقول: إنه تغرق زلتي في غمار أمجادي، ولا ينبغي أن تُذْكَر، فهو يبدأ قصيدتَه بفخر، ويُنهيها بفخر، يقول بعد الأبيات السابقة متفخرًا بنفسه:

وَأَقَبَّ مِخْمَاصِ الشّتَاءِ مُسَارِعٍ ... فِي المَجْدِ يَنْمِي لِلْعُلَى مُتَكَرِّمُ
أَكْرَهْتُ فِيهِ أَلَّةً يَزَنِيَّةً ... سَحْمَاءَ يَقْدُمُهَا سِنَانٌ سَلْجَمُ
وَتَرَكْتُ حَنَّتَهُ تَرُدُّ وَلِيَّهُ ... وَتَقُولُ: لَيْسَ عَلَى فُلَانَةَ مَقْدَمُ
وَنَصَبْتُ نَفْسِي لِلرِّمَاحِ مُدَجَّجًا ... مِثْلَ الدَّرِيَّةِ تُسْتَحَلُّ وَتُشْرَمُ[1]

وهو في هذا المقطع من شعره يُعبِّر عن عُقدةٍ نفسية أخرى خلَّفتها في نفسه فَرَّتُه تلك، هي عُقدة العظمة في مقابل إزراء قومه عليه؛ فيدافع عن نفسه بحيلة دفاعية يسمِّيها علماءُ النفس: (التكوين العكسي)، وهي حيلة نفسية يتخذ فيها الفرد أسلوبًا يعبر عن عكس الدافع الموجود عنده، وتكون غالبًا ردة الفعل مبالغًا فيها، فالتكوين العكسي يعمل على قمع الدافع المثير للقلق والشعور بالذنب، وبذلك يستريح صاحبه مؤقتًا من القلق والتوتر المرتبط به. ومن أمثلة التكوين العكسي: الزهو والتكبُّر الناتج عن الشعور بالنقص، وكالذي يخاف ولا يريد أن يطَّلع الناس على خوفه، فيظهر الشجاعة ويغالي فيها[2].

لقد بُنيت الأبيات على تمهيد حجاجيٍّ بالمناقب، ثم ذكر خفيفٌ لمنقصة الفرار، ثم عودةٌ إلى المناقب وإطنابٌ فيها بحيلةٍ حجاجيَّةٍ تأثيريَّةٍ عساها تطمسُ أو تُنسينا ما كان منه من مَعَرَّةِ الفرار.

ولا يبعد عن البال أن مالك بن عوف أخذ بيته: "وكتيبةٍ لبَّسْتُها بكتيبةٍ..."، من قول الفرَّار السُّلَميّ:

وكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ ... حتَّى إذا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ بِهَا يَدِي

(١) السيرة النبوية ٢/٤٧٤-٤٧٥.

(٢) انظر: التحليل النفسي والإتجاهات الفرويدية المقاربة العيادية، لفيصل عباس ص٣٦ (دار الفكر العربي، بيروت، ط١/١٩٩٦م).

والفرَّار شاعرٌ مخضرم، لا ندري متى قال هذه الأبيات، ولا في أي مناسبة قيلتْ، ولكنها من أشهر الأبيات المُنْشَدَة في هذا الباب.

❁❁❁

١٠- فَرَّةُ سَلَمةَ بن دُريد بامرأته يوم حُنين، وتحليلُ حِجاجِه:

وفي يوم حُنين أيضًا (سنة ٨ هـ) فَرَّ سَلَمَةُ بْنُ دُرَيْد بن الصِّمَّة وهو يسوق بامرأته حتى أعجز القوم، تاركًا وراءه قومَه وأباه دُريد بن الصِّمَّة الشاعر، الذي قُتل في تلك المعركة، فقال يعتذر عمَّا كان منه:

نَسَّيْتِنِي مَا كُنْتِ غَيْرَ مُصَابَةٍ ... وَلَقَدْ عَرَفْتِ غَدَاةَ نَعْفِ الأَظْرَبِ[1]

أَنِّي مَنَعْتُكِ وَالرُّكُوبُ مُحَبَّبٌ ... وَمَشَيْتُ خَلْفَكِ مِثْلَ مَشْيِ الْأَنْكَبِ

إِذْ فَرَّ كُلّ مُهَذّبٍ ذِي لِمَّةٍ ... عَنْ أُمِّهِ وَخَلِيلِهِ لَمْ يَعْقِبِ[2]

إنه يمنُّ عليها ليُنسيَها –أو لينسى هو– شؤم ما صنع، وهي حيلة التنسية.

وفي الشعر خطابُ إقناعٍ بـ(حُجَّة السُّلطة) كما مرَّ معنا؛ إذ فَرَّ هؤلاء من أصحاب الشأن والمنظر عن أعزِّ الناس إليهم: الأمِّ والخليل؛ فكيف لا أفرُّ أنا عن قومي وأبي؟! وقد جاء بلفظ "الأمّ"، في مقابل فراره عن "أبيه" عمدًا، كأنه يدفع عن نفسه مغبَّةَ تلك التُّهمة، فاللفظة لم تأتِ عَبَثًا في شعره.

❁❁❁

١١- الثَّقَهْقُر يومَ مُؤْتَة:

وقعت غزوة مؤتة (سنة ٨ هـ)، وكانت تسمى غزوة الأمراء؛ لأنه قُتل فيه أمراء الجيش الثلاثة رضي الله عنهم: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة؛ ثم أخذ الراية سيف الله خالد بن الوليد فاستنقذ الجيش، ورجع به إلى المدينة. فلما دنوا من حول المدينة تلقَّاهم رسولُ الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون، ورسول الله ﷺ مُقبلٌ مع القوم على دابَّة، فقال: "خُذُوا الصبيان فاحملوهم

(١) نعف الأظرب: كذا في الأصل بالظاء المعجمة، وفي معجم ياقوت: الأطرب: بالطاء المهملة ، موضع قرب حُنين، وقد استشهد في معجمه بهذه الأبيات (انظر: معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي ٢١٦/١، دار الفكر، بيروت).

(٢) السيرة النبوية ٤٥٦/٢-٤٥٧.

وأعطوني ابن جعفر"، فأُتي بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه، وجعل الناس يحثُون على الجيش التراب، ويقولون: يا فُرَّار فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله ﷺ: "ليسُوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى"(١).

لقد ضاقت البسيطة على أصحاب مؤتة، وأظلمت الدنيا في أعينهم؛ للذي حدث ذلك اليوم؛ ففي (السيرة النبوية) عن بعض آل الحارث بن هشام، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، قال: قالت أم سلمة لامرأة سلمة بن هشام بن العاص بن المغيرة: ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاةَ مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين؟ قالت: والله ما يستطيع أن يَخرج، كلما خرج صاحَ به الناس: يا فُرَّار، فررتم في سبيل الله! حتى قعد في بيته فما يخرج(٢).

شِعْرُ قيس بن المُسَحّر في أمر مؤتة، وتحليلُ حِجاجِه:

كان من ضمن أصحاب مؤتة قيسُ بن المُسَحّر اليعمري، وقد قال شعرًا يدافع فيه عما كان من أمر الناس يومئذ، ويستخدم الأساليب المختلفة في المدافعة، فهو يبدؤه ببداية نفسيَّةٍ يستدرُّ بها عاطفة الشفقة من نفوس سامعيه، أو من نفوس متَّهميه والمشنِّعين به؛ وإنه لكي تتوقَّد الحُجَّة ينبغي إشعالُها -أحيانًا- بعناصر شعريَّة أو عاطفيَّة(٣)، فهو يُقسم أولًا على طول تأنيب نفسه إيَّاه أنه لم يُقدِم، وأنه أسقط في يده في ذلك المشهد؛ فعَجَز، فلم يقدر على أن يستجير بأحدٍ، أو أن يمنع أحدًا:

فَـوَاللهِ لَا تَنْفَـكُّ نَفْسِـي تَلُـومُنِي عَلَى مَـوْقِفِي وَالْخَيْـلُ قَابِعَـةٌ قُبْـلُ

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٣٨٣/٢.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٣٨٣/٢-٣٨٤.

(٣) انظر مقالة: مدخل إلى الحجاج، للدكتور محمد الولي ص١٨ (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت)؛ وانظر في أهمية العاطفة في الاحتجاج: مقالة الدكتور حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج ص٢٣٩ (ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

وَقَفْـتُ بِهَـا لَا مُسْـتَجِيرًا فَنَافِـذًا وَلَا مَانِعًا مَـنْ كَـانَ حُـمَّ لَـهُ الْقَتْـلُ

ثم لا يلبث بعد ذلك أن يعود إلى عقله فيحتجُّ بـ(حُجة السُّلطة)، إذ يحتجُّ باتِّباع قائده خالد بن الوليد، ويصفه بأنه القائد العظيم الذي لا نظير له في معارفه العسكرية وبَصَرِه بشؤون الحرب، وهو الذي أمرنا بالتقهقر، فكان لزامًا عليَّ طاعتُه، أأُخالف قائدي يا قوم؟ إنَّ في هذا عزاءً لي. وهذه حُجَّةٌ سهلة، مفادها إلقاء التَّبِعة على غيره، والتملُّص من الخطيئة، على أننا نستشعر في الرجل أسًى لم يُفارقه حتى وهو يُحاجج عن نفسه، إذ يقول:

عَلَـى أَنَّـنِي آسَـيْتُ نَفْسِـي بِخَالِـدٍ أَلَا خَالِـدٌ فِي الْقَـوْمِ لَـيْسَ لَـهُ مِثْـلُ

إنَّ (حُجَّة السُّلطة)[1] حُجَّةٌ مشهورةٌ متداولةٌ في مثل هذا الموقف، وهي "تستخدم أعمال شخص أو مجموعة أشخاص أو أحكامهم حُجَّةً على صحة أطروحةٍ ما... وقد يُعمد في الحجاج بالسلطة إلى ذكر أشخاص معيَّنين بأسمائهم، على أن تكون سلطة هؤلاء جميعًا معترفًا بها من قبل جمهور السامعين، في المجال الذي ذُكرت فيه"[2]، وهذا ما صنعه قيس بن المسحّر هنا، إذ احتجَّ على صواب تراجعه وانسحابه من المعركة بصنيع خالد بن الوليد القائد الهمام صاحب الاختصاص العسكريّ الذي أمر بذلك.

والشاعر قد عمد هنا أيضًا إلى الثناء على خالدٍ بأنه "ليس له مثلُ" أي في الحرب، وهذا عملٌ حجاجيٌّ متداولٌ في إطار حُجج السُّلطة[3].

ثم إنَّ الشاعر يعود فتلومُه نفسُه مرةً أخرى –فهو في حال من التجاذب بين ملامة نفسه إيَّاه، واعتذاره هو عنها– كيف يترك جعفرًا صريعًا يعاني الموت، ولكنه يعود فيقول: تلك ساعةٌ لا ينفع فيها الإقدام، وهي حجةٌ مشهورة متداولة: أنه حين لا ينفع الإقدام، فالإحجامُ هو الرأي الصائب:

(١) انظر: الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون ص٦١.
(٢) في نظرية الحِجاج: للدكتور عبد الله صولة ص٥٢–٥٣.
(٣) يرى النقاد أنه "كثيرًا ما يُعمد إلى الثناء على هذه السلطة قبل استخدامها" (في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٥٢–٥٣).

وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ مِنْ نَحْوِ جَعْفَرٍ بِمُؤْتَـةَ إِذْ لَا يَنْفَـعُ النَّابِـلَ النَّبْـلُ

بل قد ساعدهم على هذا التحيُّزُ المهاجرون –وهم من هم فضلًا وتقدُّمًا وإسلامًا– فحاجزوا بينهم وبين العدوِّ حتى انسحبوا:

وَضَـمّ إِلَيْنَـا حَجْـزَتَيْهِمْ كِلَيْهِمَـا مُهَـاجِرَةٌ لَا مُشْـرِكُونَ وَلَا عُـزْلُ[1]

وهذا احتجاجٌ بصلاح القوم؛ إذ كيف تلومونا، وقد تحيَّز بنا خالد، وهو أحسنُنا حربًا، وقد حاجز عنا المهاجرون، وهم أقوانا دينًا وإيمانًا؛ لم نُخطئ حينئذ.

إنَّ الشاعر هنا يحاجج عن الجيش كلِّه بمن فيهم هؤلاء الصالحون، وقد ذهب أرسطو إلى أنَّ العوامل التي تدعو إلى بعث الثقة في الخطيب بحُجَّته ثلاثة، "إذ إن هناك ثلاثة أسباب، من غير البراهين، تدفعنا إلى الثقة، هذه هي: السدادُ، والفضيلةُ، والبِرّ"[2]. وكلُّها متحقِّقٌ في هؤلاء القوم.

لقد رحِم رسولُ الله ﷺ هؤلاء القوم من الجيش[3]، وعرف صدقَهم، فاعتذر لهم حين قلاهم الناسُ، ولان لهم حين أغلظوا لهم، ووصموهم بـ(الفُرَّار)، فقال: "ليسوا بالفُرَّار، ولكنَّهم الكُرَّارُ إن شاء الله"[4]، بأبي هو وأمي ﷺ؛ إذ يصنعُ صنيع القائد العظيم مع مثل هؤلاء الجُند الذين لاقَوْا من الأهوال ما قد لاقَوْا.

❁❁❁

(١) السيرة النبوية ٣٨٣/٢. قال ابن إسحاق في الموضع نفسه: "فبيَّن قيسٌ ما اختلف فيه الناس من ذلك في شعره، أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت، وحقَّق انحياز خالد بمن معه".

(٢) انظر: مقالة: مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي ص٢٨ (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

(٣) يذهب ابن كثيرٍ بعد جمعه الأقوال إلى أن المنهزمين الفارّين فئةٌ من الجيش في اليوم الأول، وأنَّ خالدًا بات بهم وقد جعل ميمنة جيشه ميسرة، وميسرته ميمنة، ومقدمته ساقة وساقته مقدمة، فلما أصبحوا ظنَّ الأعداء أنهم قد جاءهم مددٌ فخافوا، ونصر الله خالدًا والمسلمين، ولذا قال الرسول ﷺ: "ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله ففتح الله على يديه"؛ فالمنهزمون عنده ليسوا جميع الجيش (انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ٢٨٦/٤، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٤٠٨/١هـ).

(٤) انظر: السيرة النبوية ٣٨٣/٢.

خاتمة:

رصد هذا البحث ظاهرةً مهمة من ظواهر الشِّعر في العهد النبوي، وأثبت سَعَتَها وما أحدثته من جدالٍ حجاجيّ يصبو إلى الإقناع بالطرق المختلفة. وهذا أمرٌ مما ينمي البحث الأدبي في صدر الإسلام، ذلك العصر المتّهم دائمًا بضعف شعره وقلّته، فهذا ديوانٌ كامل في موضوع فريدٍ مختلف.

لقد وقف البحث على إحدى عشرة واقعةً من وقائع الفرار في العهد النبوي، أي في نحو عشر سنين فحسب، ولّدت هذه الوقعات شعرًا كثيرًا من شعر الفرار. إن البحث في شعر تلك الحقبة يستلزم تغييرًا للمفاهيم السابقة المسيطرة أولًا، وبحثًا عما تقتضيه حقيقةُ البحث العلمي، ويستلزم توسعةً للمصادر، فالمصادر الأدبية لم تعد هي كتبَ الأدب وحدها، بل يجب النظر في كتب الفنون الأخرى كالتاريخ والأنساب والسيرة، وهذه طبيعة البحث في أدب الحضارة العربية الإسلامية.

إن مما يدل على قيمة ظاهرة الفرار كثرة الشعراء المشاركين فيها بين مهاجم متّهِم، ومدافعٍ عن نفسه، وكثرة الخائضين في أمرها من غير الشعراء، ممن يستحثُّون الشعراء على إنتاج الشعر. وهؤلاء الشعراء هم: حسان بن ثابت، والحارث بن هشام، أبو سفيان بن حرب، وهُبَيْرة بن وَهْبٍ، وابن لُقَيمٍ العَبْسيّ، وتَميم بن أَسَد، وحِمَاس بن قَيْسٍ، عباس بن مرداسٍ السُّلمي، ومالك بن عَوْفٍ، سَلَمة بن دُريد بن الصِّمَّة، وقيس بن المُسَحّر.

والقيمة أن بعض هؤلاء الشعراء يحتاج إلى تنقيب وبحث عنه، وهذا مما يدعو إليه البحث، ولعل الله يوفّق إلى ذلك بحوله وقوته.

وقد سلك هؤلاء الشعراء سُبُلًا مختلفةً في إيراد التهم والدفاعات، وقد استخدمت هذه الدفاعات الحجج العقلية والعاطفية المختلفة، واتخذوا سبلًا مختلفة للتأثير في المخاطبين نفسيًّا ومنطقيًّا، أو مغالطيًّا في بعض الأحيان، بما بيّناه في غضون البحث، وبما لا يحسن ذكره هنا لئلا تختلط المصطلحات

والمفاهيم؛ لوجود كثيرٍ من هذه الحجج في العلوم النظرية المختلفة بأسماء مختلفة.

وهذا جدولٌ يوقفنا على تصور بعضٍ من حقائق هذا البحث:

	وقعات الفرار	السَّنة	الشاعر المهاجِم	الشاعر المدافع
١	فرار المشركين يوم بدر	٢هـ	حسان بن ثابت	–
٢	فرة الحارث بن هشام يوم بدر	٢هـ	حسان بن ثابت	الحارث بن هشام
=	فرة الحارث بن هشام يوم بدر	٢هـ	أبو سفيان بن حرب	الحارث بن هشام
٣	فِرَار المشركين يوم الخَنْدق	٥هـ	–	هُبَيْرَة بن وَهْبٍ
٤	فَرَّةُ عِكْرمة بن أبي جهلٍ يوم الخَنْدق	٥هـ	حسان بن ثابت	–
٥	فِرارُ يهود خَيْبر	٧هـ	ابن لُقَيمٍ العَبْسيّ	–
٦	فَرَّةُ تَميم بن أَسَد قُبَيْل الفتح	٨هـ	–	تَميم بن أَسَد
٧	فِرار حِمَاس بن قَيْسٍ والقُرشيين يوم الفتح	٨هـ	–	حِمَاس بن قَيْسٍ
٨	فَرَّةُ قارب بن الأسود وقومِه يوم حُنين	٨هـ	عباس بن مرداسٍ	–
٩	فَرَّة مالك بن عَوْفٍ في حنين	٨هـ	–	مالك بن عَوْفٍ
١٠	فَرَّةُ سَلَمة بن دُريد بامرأته يوم حُنين	٨هـ	–	سَلَمة بن دُريد
١١	التَّقَهْقُر يومَ مُؤْتَة	٨هـ	–	قيس بن المُسَحّر

إنَّ شعر الفرار في العصر النبوي قد فتح لنا أبوابًا أخرى نطَّلع بها على العقلية العربية التي لم تتمرَّس بالمنطق اليوناني بما خلَّفه من نصوص المنطق والسفسطة، بل غاية ما هنالك هو تلك السليقة العربية الحاذقة، والعقليَّة الفطريَّة الحادَّة التي تعكس لنا صورةً لا بأس بها عن التكوين الفكريّ والنفسيّ لطائفةٍ صالحةٍ من شعراء ذلك العصر.

المصادر والمراجع:

١. الأدب في عصر النبوة والراشدين، للدكتور صلاح الدين الهادي (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/١٩٨٧م).
٢. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١/١٩٩٢م).
٣. أسد الغابة، لابن الأثير، أبي الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري، عز الدين ابن الأثير (دار الفكر، بيروت ١٤٠٩هـ).
٤. الأمالي، لأبي عليٍّ القالي، إسماعيل بن عيذون بن هارون (دار الكتب المصرية، ط٢/١٩٢٦م).
٥. البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي (تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤٠٨هـ).
٦. البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١/١٤١٠هـ).
٧. تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (دار التراث، بيروت، ط٢/١٣٨٧هـ).
٨. تاريخ نظريات الحجاج، تأليف فيليب بروتون وجيل جوتييه (ترجمة الدكتور محمد صالح ناحي الغامدي، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، ط١/١٤٣٢هـ).
٩. التحليل النفسي والإتجاهات الفرويدية المقاربة العيادية، لفيصل عباس (دار الفكر العربي، بيروت، ط١/١٩٩٦م).
١٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة، ط١/١٤٢٢هـ).

١١. الحجاج في التواصل، تأليف فيليب بروطون (ترجمة محمد مشبال وعبدالواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١/٢٠١٣م).
١٢. الحجاج في الشعر العربي: بنيته وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي (عالم الكتاب الحديث، إربد ٢٠١١م).
١٣. خزانة الأدب ولُبُّ لُباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١٤/١٩٩٧م).
١٤. الخطابة، بالترجمة العربية القديمة، لأرسطوطاليس (حققه وعلَّق عليه عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت ١٩٧٩م).
١٥. دلالة الفرار في شعر الهذليين في العصر الجاهلي، لأحمد أبو خطة (مجلة الأثر، جامعة مقاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد الخامس ٢٠٠٦م).
١٦. ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (دار الجيل، بيروت، د.ت).
١٧. رواة محمد بن إسحاق بن يسار في المغازي والسير وسائر المرويات، لمطاع الطرابيشي (دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).
١٨. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، للسهيلي، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/١٤١٢هـ).
١٩. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، للعصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي (تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤١٩هـ).

٢٠. السيرة النبوية، لابن هشام، أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري (تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢/١٩٥٥م).
٢١. شرح ديوان الحماسة، للتبريزي، أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي (دار القلم، بيروت، دت).
٢٢. الشعر العربي في القرن الأول الهجري، للدكتور محمد مصطفى هدارة (دار العلوم العربية، بيروت ١٩٨٨م).
٢٣. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل (تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ).
٢٤. عيون الأثر في المغازي والسِّيَر، لابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد (تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١/١٤١٤هـ).
٢٥. الفرار في الشعر الجاهلي: المواقف واختلاف وجهات النظر، لمشتاق طالب منعم (مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد العاشر ٢٠١١م، ص٧٠).
٢٦. في نظرية الحِجاج: دراسات وتطبيقات، للدكتور عبد الله صولة (مسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١/٢٠١١م).
٢٧. الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، أبي العباس محمد بن يزيد (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣/١٤١٧هـ).
٢٨. لسان العرب، لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الإفريقي (تحقيق عبد الله علي الكبير وزميليه، دار المعارف، القاهرة).
٢٩. مرويات غزوة حنين وحصار الطائف، لإبراهيم بن إبراهيم قريبي (منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط١/١٤١٢هـ).

٣٠. معجم البلدان، لياقوت بن عبد الله الحموي (دار الفكر، بيروت، د. ت).
٣١. معجم الشعراء، للمَرْزُباني، أبي عبيد الله محمد بن عمران (تصحيح وتعليق ف. كرنكو، مكتبة القدسي، بيروت، ط٢/١٤٠٢هـ).
٣٢. المعجم الكبير، للطبراني، أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط١/١٤١٥هـ).
٣٣. المغازي، للواقدي، محمد بن عمر بن واقد (تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣/١٤٠٩هـ).
٣٤. المغالطات المنطقية: فصول في المنطق غير الصوري، لعادل مصطفى (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١/٢٠٠٧م).
٣٥. المفضَّليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي (تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط/٦).
٣٦. مقالة: منزلة العواطف في نظريات الحجاج، للدكتور حاتم عبيد (ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).
٣٧.مقالة: مدخل إلى الحجاج: أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، للدكتور محمد الولي (ضمن عدد مجلة عالم الفكر المخصَّص للحِجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).
٣٨.المنطق، لمحمد رضا المظفر (دار التعارف للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٦م).
٣٩.موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، لعبد المنعم الحفني (مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٧٨م).
40.Sigmund Freud, Case Histories II (PFL 9).
41.The Ego and The Mechanisms of Defence, Anna Freud, Karnak books, Exeter, 1993.